الثعالب الشاحبة

@ketab_n
Follow Me
21.5.2017

يانيك هاينيل

رواية

ترجمة:

د. ماري الياس

د. معن السهوي

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

يانيك هاينيل

الثعالب الشاحبة

رواية

ترجمة:
د.ماري الياس – د.معن السهوي

Twitter: @ketab_n

الثعالب الشاحبة

Twitter: @ketab_n

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

Les Renards pâles

by: Yannick Haenel

الثعالب الشاحبة - رواية

تأليف: يانيك هاينيل

ترجمة: د.ماري الياس - د.معن السهوي

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 08 - 1

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

©Editions GALLIMARD Paris 2013

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت الكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

Twitter: @ketab_n

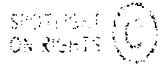

تم إصدار هذا الكتاب بمساعدة منحة تقدم بها برنامج
"أضواء على حقوق النشر" في أبو ظبي

This book has been published under the Spotlight on Rights initiative of the Abu Dhabi International Book Fair

Twitter: @ketab_n

إلى فرانسوا ميريونيس

Twitter: @ketab_n

«سننتصر على الرأسمالية بالمشي».

والتر بينامين

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 1 -

فاصل

إنها الفترة التي كنت أعيش فيها في سيارة. في البداية، كان الأمر مجرد نزوة. كنت سعيداً بوجودي هنا، في الشارع، من دون عمل. لم أكن أشعر بالرغبة في تحريك السيارة، فلمَ أحركها طالما أنه لم يكن لدي مكان أذهب إليه أصلاً؟ أحببت وجودي في شارع «الصين» تحت الأشجار. كنت قد ركنت السيارة على طرف الرصيف مقابل البناء رقم 27. وكنت أحدّق ببتلات زهر الكرز وهي تحوم في الجو كندف ثلج متساقطة قبل أن تتناثر برفق على الزجاج الأمامي للسيارة.

كان يوم أحد، في حدود الساعة الثامنة مساء. أتذكر ذلك بدقة كوني طردت من بيتي في ذلك اليوم تحديداً. فمنذ أشهر استحال عليَّ تسديد إيجار الشقة، قامت صاحبة البيت بتذكيري بالاستحقاقات المترتبة عليَّ. وفي صباح ذلك اليوم دقت جرس الباب، ولما لم أفتح لها، أخذت تصرخ معلنة بأني يجب أن أخلي الشقة المفروشة قبل حلول المساء. عدت بعد ذلك إلى النوم بنوع من الخفة تبدو لي اليوم مبالغ فيها. في تلك الفترة

Twitter: @ketab_n

كنت بالكاد أهتم بما يسمى بالعلاقات الإنسانية. ربما لأنني لم أكن أشعر بالحاجة إلى أن أوحي للآخرين بأني ما زلت على قيد الحياة.

باختصار قضيت النهار كله في السرير. ثم عند المغرب، في الوقت الذي تنشر فيه أشعة شمس شهر نيسان ألوانها الدافئة، في الوقت الذي يستمتع المرء فيه بتمريغ وجهه في تلك الأشعة، قمت بجمع حاجياتي من ملابس وكتب ونبتة البردي التي ترافقني منذ مدة طويلة. بالكاد ملأت ثلاثة صناديق من الورق المقوى.

منذ عدة أشهر وأنا أشعر بأني فقدت بوصلتي، وقد أضحى مسار حياتي من جراء ذلك مشوشاً، غير واضح المعالم. لم أكن أخرج من البيت إلا في الليل كي أشتري من دكان جاري البقال البيرة والبسكويت والسجائر. هل كنت أتعذب؟ لا، لا أعتقد ذلك. عندما كنت أستيقظ، كان يكفيني أن أجلس على الأرض متكئاً على زاوية الجدار، في طرف الغرفة بين جهاز التدفئة والسرير. لم يكن لهذه الزاوية من خصوصية سوى أن نوراً مميزاً كان يصل إليها ابتداء من الساعة الخامسة مساء. كان هذا الضوء يدخل البهجة إلى قلبي. إنه نور شبيه بهالة من الأحمر والبرتقالي والأصفر تتحرك على الجدار على مدار الساعة لتصل أخيراً إلى رأسي وتُتوّجه.

إنها شعلة تمزق الخطوط المرسومة، فتُخرج العزلة إلى الضوء. ماذا كان يحدث لي في هذه الغرفة؟ هل كنت أجهز مكاناً في داخلي للثعالب الشاحبة؟ لا أعرف إن كان لما كنت أمر فيه أي معنى، لكنني كنت قادراً على أن أنتظر طوال فترة ما بعد الظهيرة إلى أن تتوّج هالة الضوء رأسي.

Twitter: @ketab_n

هذا الشعور بالترقب أو الانتظار كان يملأ علي نهاراتي ويخرجها عن المألوف، بمعنى آخر كان الترقب يعطيها قدسية ما.

الآن، وأنا أصف ما مررت فيه، أعي غرابة تلك المرحلة من حياتي، حتى أن بعض الأصدقاء سموا ذلك اكتئاباً. كيف لي أن أعرف؟ أحياناً يكون علينا أن نتحمّل ما اعتقدنا أننا نرغب فيه. لم أكن أملك إلا القليل من المال، معونات البطالة، وهي تتضاءل شهراً بعد شهر نتيجة إهمالي في ملء بيانات الاستمارات المطلوبة. لكنني كنت أشعر بأني سعيد بهذا الفراغ ومتشبث جداً بهالتي. عطالتي كانت تجربة، وكنت أعيش هذه التجربة. كنت أستعد، كنت في السابق، وما زلت حتى الآن، وسأكون دائماً، غائباً. هناك شيء ناقص في صلابة العالم وأنا أتماهى مع هذا الشيء الناقص.

عند الساعة الثامنة من مساء ذاك الأحد، بعد أن أغلقت النوافذ وقطعت التيار الكهربائي، أنزلت العلب الكرتونية الثلاث ووضعتها في صندوق السيارة، من ثم وضعت مفاتيح الشقة في علبة البريد كما كانت قد طلبت مني مالكة الشقة. لم تطلب القيام بجرد لمحتويات الشقة، لا شيء من هذا القبيل، فأنا لم أكن قد دفعت أصلاً كفالة لدى استئجارها.

وهكذا صرت مشرداً في الشارع. بالكاد بضعة أيام وتبدأ حالة التدهور، في يوم ما مساء يدرك المرء أنه قد تأخر كثيراً في استدراك ما حصل له. في حالتي، لم يكن الأمر بهذا الحد الفاجع، فما زالت لدي السيارة التي أودعني إياها، منذ سنتين، صديق يعمل في إفريقيا، وذلك إلى حين عودته إلى فرنسا، في حال تم ذلك.

Twitter: @ketab_n

دخلت السيارة وأنا أبتسم. انتظمت بتلات زهر الكرز في الشارع وعلى الزجاج الأمامي بما يشبه لوحات زنابق الماء لكلود مونيه. انعكاسات زهرية وبيضاء وبنفسجية، وهدوء أختبره على ضوء العزلة. أظن أني الآن مرتاح لتجاوزي تلك المرحلة، ولكوني على أعتاب فصول جديدة من حياتي. فالنضارة تتأتى مع الصفحات الجديدة التي نكتبها في سفر الحياة ونشعر بأنها تساعدنا. وعلى الرغم من جهلي بما كنت سأفعل في المستقبل القريب، إنما كان لدي إحساس بأن حياتي كانت تنعتق وتتفتح شيئاً فشيئاً، وهذا ما كان يهمني في المقام الأول.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أجلس فيها خلف المقود دون أن آتي بأية حركة. حيث أنني نادراً ما أغير مكان السيارة. إنها من نوع البريك من فئة ر 18 التي تشبه الحوت بضخامتها. فلو تركت مكاني فإني على الأغلب لن أجد مكاناً آخر أركنها فيه عند عودتي. ذلك أن شارع «الصين»، هو من الشوارع النادرة المتبقية في باريس، التي ما زالت مواقف السيارات فيه مجانية. كنت أحياناً كثيرة أجلس خلف المقود لساعة أو ساعتين ليس لشيء سوى التفكير، هناك شيء ما ينطلق في داخلي كل مرة أدخل فيها السيارة. على الرغم من أنني لا أقودها، إلا أن شيئاً من الخفة يجتاح حركتي، ثم تختفي هذه الحركة بهدوء وأبقى معلقاً. هل هو الفراغ؟ نكون هنا وفي الوقت عينه لا يكون لنا وجود. يمر العابرون بنا ولا يروننا. بتُّ شخصاً غير مرئي.

على كل حال، في كل مرة أكون فيها وراء المقود، كنت أشعر أن رأسي ينفتح. وهذا يعني أن الحالة انتابتني. ما هي هذه الحالة؟ لا أعرف

Twitter: @ketab_n

بالتحديد. ولكنها عندما تنتاب المرء يشعر بأن شيئاً ما يحدث له بالتأكيد، وبأنه لم يحدث له شيء قبل ذلك. لم يحدث إلا هذا.

هل لهذا الشيء الذي أعيشه اسم؟ ما من أحد يعلم ماذا يحصل في الفراغ. أنا شخصياً، أميل إلى تسميته انترفال[1]. من الصعب وصف إحساس كهذا تمتزج به نفحات سعادة ونوع من التمزق، من الصعب تحمّله، فهو أشبه بعاصفة هائلة. أيخنق؟ أيحرر؟ الاثنان معاً، هو شعور يشبه السقوط في حفرة والبقاء معلقاً دون الوصول إلى قعرها.

يعود الفضل إلى هذا الفاصل، دون أدنى شك، في أني لم أشعر بتوجس حيال تحوّلي إلى التشرد، ويعود الفضل إلى السيارة في أنني أعيش هذا الفاصل. فقد كان محتماً عليَّ أن أترك ذات يوم بيتي نهائياً لأنتقل للعيش فيها.

أدرت المفتاح وأشعلت الراديو. إنها تمام الساعة الثامنة مساء، موعد موجز الأنباء. تم الإعلان عن اسم رئيس الجمهورية الجديد. ضحكت بيني وبين نفسي، فكيف أمكنني أن أنسى؟ على الرغم من أني كنت متواجداً في سيارتي المتوقفة في شارع «الصين»، ذات يوم أحد من شهر نيسان، في باريس، في فرنسا، إلا أني كنت - دون شك - الوحيد الذي يجهل أن اليوم هو، في فرنسا، في باريس وجميع المدن والقرى وحتى في شارع «الصين»، موعد انتخاب رئيس جديد للجمهورية. ذهلت! فما الذي انتابني حتى أنسى ما يجري؟

1- وحدة لقياس الفراغ الفاصل بين نقطتين.

Twitter: @ketab_n

بالطبع لم أشارك في الاقتراع. لكن ذلك لم يكن من باب النسيان، فقد اخترت طوعاً ألا أمارس حق الانتخاب. هذ القرار يعود إلى سنوات عديدة، إلى الزمن الذي بدأت فيه السياسة في فرنسا بالتفسخ. ودخول الفاصل (الانترفال) إلى حياتي عمَّق نفوري من السياسة، إذ لم يعد من الممكن بالنسبة إليَّ أن أتصور نفسي مؤمناً بشيء في زمن ينفرط فيه عقد كل شيء، وتبدو فيه أصغر الروابط عبثية.

هكذا إذاً، كانت الساعة الثامنة مساء عندما أعلن الراديو اسم الشخص الذي لُقِّب بـ «الرئيس المنتخب الجديد». استمعت إلى تعليقات متنوعة قبل أن يقوم الرئيس المنتخب بإلقاء خطاب.

لم أكن أستمع إلى الكلمات في أثناء الخطاب. بالطبع وكما جرت العادة، تطرق الخطاب إلى حال البلد والأمة، إلى الجهود والأفعال التي يتوجب على الفرنسيين أن يشاركوا فيها. تكررت كلمة عمل على وجه الخصوص في كلامه: علينا أن نعمل، أن نعمل لوقت أكبر، ألا نقوم بشيء سوى العمل. فقلت في نفسي: أهنالك عاطلون عن العمل آخرون مثلي يستمعون إلى الرئيس الجديد وهو يشيد بالعمل الذي لا يحصلون عليه ولن يحصلوا عليه أبداً؟

ذلك أن العمل الذي وصفه لنا في خطابه كواجب نحو الجمهورية، كقيمة قادرة، حسب زعمه، لإنقاذ البلد، لم يعد موجوداً بكل بساطة. يشجعوننا على العمل في حين أن الفرص لم تعد متوفرة. الناس الذين كنت ألتقيهم كانوا جميعاً قد سُرِّحوا من وظائفهم، الكل طرد خارجاً، ليعيشوا في ضنك استبعادهم من سوق العمل.

Twitter: @ketab_n

كان الرئيس الجديد يكرر كلمة عمل متظاهراً بأن فيها حل جميع المشكلات، لكن في الواقع كان يذكّرنا بأننا وصلنا جميعاً إلى طريق مسدود، ويذكّرنا بكم بات من السهل التحكّم بنا! قلت في نفسي: هنالك من يجهدون أنفسهم في العمل ومن يفنون أنفسهم في البحث عن عمل، ألا يوجد خيار آخر؟

كانت الأمور واضحة بالنسبة إليَّ في ما يخص حالتي، أنهكت نفسي في العمل لمدةٍ طويلةٍ في الضواحي قبل أن أتحرر من هذه العبودية. اليوم، لم أعد أرغب في العمل. بطالتي أخذت شكل الرفض الهادئ. على غرار فكرة الانتخاب التي ماتت في داخلي، خبت فكرة العمل هي الأخرى وذابت في نور الهالة التي تلفني. أفضل أن أعيش منعزلاً مع القليل من المال على أن أكون مديناً لأحد بشيء.

إني أعي تماماً أن العاطلين عن العمل يعتبرون كطفيليات في المجتمع. أعلن «المُنتَخب الجديد» للتو حرباً على كل الذين لا يستيقظون باكراً كل صباح للذهاب إلى أعمالهم. هم مواطنون سيئون، على حد تعبيره، ومن غير المقبول أن يستمر المجتمع في مساعدتهم. بذلك يكون المُنتَخب قد وضع في سلة واحدة المعتالين على المعونات والفقراء، وكل الذين طردوا من عملهم.

يريدون أن يقنعونا بأن العمل هو الطريقة الوحيدة لكي يكون للمرء وجود، في حين أن العمل هو ما يفسد وجود الذين ينخرطون فيه، والناس الذين كانوا يتخيلون أن بقاءهم مرهون بالعمل هم نفسهم يسعون الآن إلى أن يجدوا وسيلة تسمح لهم بأن يبقوا على قيد الحياة.

Twitter: @ketab_n

وماذا لو استطاع كل واحد منا أن يتخلص منه عبر مرونة خاصة، أو أن يكسر طوق الطاعة الوسخة؟ سينتهي الأمر بإعلان إضراب عام، وستغرق البلد من جرائه في بلبلة. أتخيل بنوع من اللذة الضبابية فرنسا وهي تغص بفوضاها.

تتابع خطاب «المُنتَخب الجديد»، إلا أني لم أعد أستطيع الاستماع إليه، فخلف كل كلمة من كلماته كان هناك شبه عويل. كان هناك نوع من دبدبة صماء كما لو أن اللغة تختلج. شيء ما كان يصرصر في مسنناتها المهترئة غير المنتظمة. الجمهورية الفرنسية تصرّ على أسنانها.

أطفأت الراديو. كانت شجرة الكرز المقابلة للبناء 27 تفتح أغصانها للأزهار المتطايرة. خرجت من السيارة ورحت أغمس رأسي في أمواج بتلاتها. تنفست بعمق رافعاً وجهي نحو الأغصان ومغمضاً عينيَّ، داعبت البتلات وجنتي وجبهتي وفمي فابتسمت في الشارع سابحاً في بحر من الزهور في يوم أحد ربيعي. لا حدود لسعادتي. فكرت في تعبير «المُنتَخب الجديد»، ألست أنا المُنتَخب بعد أن طردت من حياتي؟

في تلك اللحظة تحديداً، بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة بقليل، قررت أن أسكن في السيارة. أحسست بأن هذا ما يتوجب عليَّ فعله: البقاء في السيارة وانتظار حضور الفاصل (الانترفال) ومن ثم الإصغاء. إصاخة السمع ولوقت طويل لما تخفيه الكلمات، أن أترقب ما سيحدث. كان الأمر قد بدأ للتو وكان لدي كل الوقت لأخصصه له.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

البردي

لم أنم في الليلة الأولى. انشغل فكري بمختلف التفاصيل التي تخطر لكل من يبدأ حياة جديدة. كنت أتلذذ بالطرق المختلفة التي كنت أدخل بها إلى السيارة، كما لو أن أبوابها أبواب قصر تنفتح أمامي.

بعد أن رتبت الصناديق الكرتونية في صندوق السيارة، توجهت إلى بقالية الحي لشراء بعض المؤن كزجاجة نبيذ وسمك طون معلب وخبز محمص وشوكولا وحزمة من زجاجات المياه المعدنية. وضعتُ على الكرسي جانبي - لكي تكون في متناول يدي - كلَّ الأشياء التي أحتاجها: فرشاة الأسنان، معجون الأسنان، أدوية، قلم حبر، دفتراً صغيراً ومصباح جيب، جمعتها كلها في علبة حديدية كانت في الماضي مخصصة للبسكويت. على المقعد الخلفي وضعت غطاء للنوم وبعض الثياب. سأفكر لاحقاً في الأشياء التي يمكن أن أحتاجها أيضاً.

أشعلت سيجارة ورحت أتنشق نسيم المساء اللطيف من خلال النافذة المفتوحة. كان عبير أزهار الكرز ونبات الوستارية الآتي من

Twitter: @ketab_n

الحديقة الواقعة على زاوية شارع «فيليه دو ليل ادم» يعبق في المكان. أمضيت فترة مساء هادئة، فالشوارع كانت خالية والكل مشغول بنتائج الانتخابات.

راقت لي فكرة أن أكون جالساً خلف مقود السيارة دون أن أنطلق بها، حتى أني وجدتها أفضل من فكرة التنقّل بحد ذاتها. أليس في مثل هذه الفانتازيا شيء ما مرتبطٌ بأحلام الطفولة والتخشيبات المعلقة على أغصان الشجر؟ والأمر مفهوم: فقد كنت سعيداً.

لكل واحد منا لحظات معيّنة في حياته تثير في نفسه سعادة جمة تنسيه العالم حتى وإن كان الكوكب على وشك الانفجار. هذه اللحظة كنت أعيشها بكل جوارحي.

بالطبع لم أكن أجهل أن سكني في السيارة سيعرضني لبعض الإزعاجات، فعلى سبيل المثال أنا لا أعرف أين سأغتسل! لم أكن قد طرحت على نفسي هذا السؤال بعد، إنما، في الوقت ذاته، لم يكن لدي أوهام حول مستوى الرفاهية، أو حول الإمكانية الفعلية للنوم داخل السيارة. لكني، في هذا المساء تحديداً، لم أرغب في التفكير في الهموم القادمة إذ كنت أعطي الأولوية لسعادتي الآنية.

ثم ركّزت اهتمامي على نبتة البردي التي كنت مضطراً إلى تركها مؤقتاً على الرصيف كون ساقها أطول من أن أستطيع إدخالها إلى السيارة، وذلك بانتظار أن أجد حلاً ما، كنت من وقت إلى آخر أنظر باتجاهها لأتأكد من أن أحداً ما لم يسرقها. هذا البردي يوحي لي بالصداقة. تعجبني نحالته وانتصابه الذي يوحي بالكرامة، إنه يذكرني بمنحوتات

Twitter: @ketab_n

جياكوميتي المعروفة بطول أجسادها وحدتها، وكأنها تتحرك على خيط رفيع. على غرار هذه المنحوتات، يبدو البردي وكأنه جاء من عالم آخر. أناقة حضوره تبدو غريبة على جنون عالمنا.

قلت لنفسي وأنا أحدّق بالبردي: إنه يعيش لنفسه وبنفسه. لأكون مثله، وأعتبر وحدتي هذه كشكل من أشكال النبالة. لا أنحني ولا أستسلم أمام تيارات الحياة التي تعاكسني. إن اعتدت على تقشف الصحراء، كافأتني الحياة بندى الصباح.

أغمضت عينيَّ مطمئناً لوجود رفيق يهوِّن عليَّ وحدتي، وفجأة اعتراني الخوف: أليست نبتة البردي بعيدة عن السيارة؟ قد يأخذها عابر سبيل، لا بل هذا أكيد، فنبات بردي كهذا متروك في الشارع سيثير حتماً طمع الناس، يبدو أنهم يستخدمون مثل هذه النباتات لتزيين صالوناتهم.

خرجت في الحال من السيارة لأضعها في مكان أفضل. قررت أن أركنها قرب جدار بناء، لمَ لا؟ هكذا تكون في مكان متطرف ولن ينتبه أحد لوجودها. لكنها ستبدو كالفضلات القميئة التي تنتظر سيارة القمامة كي ترحّلها. الأفضل أن أضعها في مكان أقرب بحيث أستطيع ملاحظتها بسهولة، لكنها في هذه الحالة ستعيق الحركة على الرصيف، وستكون عرضة لعيون المارة. خرجت عدة مرات من السيارة لأعدل مكانها ولم أقتنع بأي منها. في نهاية الأمر قمت بوضعها بشكل ملاصق لباب السيارة الخلفي حتى أن أطراف بعض أوراقها تكسرت، وبعضها الآخر وصل إلى زجاج الباب الأمامي، فبدت كحيوان يستجدي مالكه إدخاله إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

حلَّ الليل تباعاً. وبينما كنت أنظر إلى السماء وهي تتلون بألوان الغسق خلف الأبنية البرجية لحي «سان بليز»، أدركت أني لم أتأمل غروب الشمس منذ أشهر وربما منذ سنوات. حتى هذه المتعة البسيطة كنت قد حرمت منها، ففتحت عينيَّ بالكامل كما لو كنت أنظر إلى فريسة كنت أترقبها.

أيقظ ذهني هذا الغروب الذي شهدته عبر زجاج السيارة الأمامي. فعند كل غروب، كانت تجتاحني رغبة وحيدة هي: أن ينتهي هذ العالم العقلاني. إنني أرغب في أن أتسلق إلى عمق هذه النجوم المعلقة والتي تنتشي في كثافة ألوان الغروب. أريد أن أتشرب حتى النهاية من هذه الأشعة الحمراء والسوداء. وحدها نشوة النجوم يمكنها أن تنتشلني من ثقل الأرض.

كما قلت، لم يغمض لي جفن في الليلة الأولى. أرجعت المقعد قليلاً إلى الوراء كي أتمكن من تمديد ساقيَّ، وحنيت ظهر المقعد كي أريح رقبتي. لففت نفسي بمعطف أرتديه صيفاً وشتاءً، ودخنت بعض السجائر دون أن أفكر في شيء. أو بالأحرى كنت أفكر في جملة قالتها لي موظفة الشؤون الاجتماعية عندما علمت بأني لا أملك هاتفاً: «لا يحق لك أن تكون غير متوفر». والآن وبما أنني لا أملك عنواناً أيضاً، أصبحت «غير متوفر نهائياً».

ثم فكرت في هذه المدينة الممتدة حولي والتي تذوي في خمولها. ألم تكن دوماً عاصمة العصيان؟ مرت في ذهني ذكرى غي دوبور[2] والأممية

2- شاعر وسينمائي فرنسي، اشتهر بكتابته جملة «لا تعملوا» على أحد جدران باريس.

Twitter: @ketab_n

الموقفية[3] كفكرة خاطفة، أو كمذنب مشتعل، فقد كانت هذه الحركة آخر من أعاد الحياة إلى كلمة ثورة في فرنسا، وآخر من عاشها كحرية حقيقية. بعدها، أصبح كل شيء دون معالم ولم يعد هنالك من يحمل الشعلة. ماتت السياسة عندما مات الشعر. لقد استحوذ عدم الاكتراث على هذه المدينة بحيث أن كل فرد فيها انكفأ على تسوياته الذاتية، مدعياً رغبات لم تكن في الحقيقة سوى ردود أفعال لمستهلكين بائسين.

إلا أن الثورة كانت على وشك أن تندلع من جديد، فالجو كان محموماً هذا المساء لدرجة الإحساس وكأن الشوارع تهتز. أرى في هذا الغليان فألاً إيجابياً وبشارة خير بأن زمن الثورات سيعود، اللحظات التاريخية التي بقيت معلقة، تنتظر دورها، عاودت الظهور مجدداً مثل الأشخاص العائدين من الموت، وهذه العودة ستتيح فرصة انبثاق فجر جديد.

ربما كان استقراري في السيارة هو ما يصيبني بنوع من الحمى، ومن الأوهام، فالأوهام من السهل أن تسكن شخصاً يعيش وحيداً. لكنني لا أظن ذلك، كل ما في الأمر هو أن الأشياء اتضحت لي في ذاك الأحد من شهر نيسان، لقد فهمت وأنا أستمع إلى خطاب «المُنتَخب الجديد» بأن الخراب، لكي ينتقم من ذاته، لا يحلم سوى بالتمدد. فهمت بأن وراء أكاذيب الحكومات المتتالية، وخلف تصريحاتها المليئة بكراهية واضحة، ما زال الحلم القديم بتأطير الجميع حياً، الحلم بتدجين سكان باريس وضواحيها، الذين لطالما حملوا فكراً غير مرغوب فيه، ما زال حياً. كذلك

3- حركة ثورية في الميادين السياسية والفنية في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت تطمح إلى التحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى.

Twitter: @ketab_n

الأمر بالنسبة إلى تحطيم كل ما لا تستطيع هذه الحكومات السيطرة عليه.

ضغطت على زر الصندوق الصغير بجانبي، انفتح غطاؤه ببطء يعجبني، أضاء تلقائياً النور الأزرق فيها. يبدو هذا الضوء كرفيق ليل وحدتي، وبمعنى ما، أجده شاهداً على وجودي. هل أنا متأكد من كوني موجوداً؟ وهل كوني على قيد الحياة أمر عادي؟ لا أعتقد ذلك، فإنني لا أرى دقات قلبي وحدها دليلاً على كوني حياً. فأن تكون موجوداً لا يعني فقط أن تحرق الـ 750 غراماً من الأوكسجين التي يحتاجها جسمك يومياً. أما بالنسبة إلى هذا الضوء الأزرق الخافت، فهو موجود ولا يمكن دحض ذلك، وحضوره يمدني بشعور يضفي على وجودي نوراً ما، عندما يبدو لي أن كل ما يحيط بي، يسعى إلى حرماني منه.

بالإضافة إلى الضوء، كانت العلبة تحتوي على أوراق السيارة وخريطة لباريس ومسرحية «في انتظار غودو» التي يبدو أن صديقي نسيها عند سفره إلى إفريقيا.

الساعة الآن الثالثة فجراً، أشعلت ضوء السيارة الداخلي ورحت أتصفح الكتاب. ابتسمت في الحال، فجمل «بيكيت» تحاكي بشكل مطابق الوضع الذي كنت أعيشه، وكأنني على موعد معه. يقول أحد المشردين الاثنين لرفيقه: «السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا هو ماذا نحن فاعلون هنا؟» حركت هذه الجملة شيئاً في نفسي، كل شيء حولي يدفعني إلى أن أسأل نفسي السؤال عينه: ماذا أنا فاعل هنا؟ فها أنا أقضي الليل خلف مقود سيارة لا أحركها، محاطاً بالبردي وبالضوء الأزرق الخافت. حماستي تخبو وظهري يؤلمني بينما يبدأ ضجيج المدينة

Twitter: @ketab_n

بالارتفاع، وأضعف صوت وأقل رنين وأدنى حفيف تصدره السيارات المارة قريباً مني في شارع الصين، عند الانطلاق أو الكبح أو التسارع، يصيب الهدوء والسكينة اللذين كنت أنعم بهما في مقتل.

إلا أن شخصيات المسرحية أنفسهم، فلاديمير واستراجون، كانا قد وجدا الإجابة على هذا السؤال، وهذه الإجابة تصلح لحالتي أيضاً. عملياً لقد كانا هنا ليستمعا إلى أصوات. تحدث استراجون عن «كل الأصوات الميتة». كانا يقولان معاً إن هذه الأصوات تشبه صوت حفيف الأجنحة أو الأوراق أو الرمل. لم يكونا متأكدين تماماً من نوع الصوت إلا أنهما كانا متفقين على أن جميع الأصوات كانت تصدر في الوقت ذاته.

قلت في نفسي إن تأثير غودو عليَّ يشبه الأثر الذي تتركه لدى الآخرين قراءة ديوان الطالع لـ ي. كينغ. الأصوات التي استيقظت منذ أن أقمت في السيارة هي أصوات تأتي من ذاكرة أوسع من التي أمتلكها وتتكلم بلغة الرفض. مشردا بيكيت العنيدان قالا لي: «لا يمكن لهذه الأصوات أن تكون ميتة». لقد أكدا لي بأن الأصوات لا يمكن أن تموت، ويكفيها أن تجد من يسمعها لتعود إلى الحياة من جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 3 -

الدائرة العشرون

بعد بضعة أسابيع صرت شخصاً آخر. لكثرة ما انسجمت بالفاصل لم يعد لي آراء، ولا أفكار، ولا أفضليات ثقافية. لم أعد مجرد جان ديشيل ذاك، صاحب الثلاثة والأربعين عاماً، قليل الكلام، الذي يستلم تعويض البطالة ولا يتصرف اجتماعياً إلا على مزاجه: هناك شخص غريب سكن ذلك الجسد المتسربل بالمعطف الرمادي الأزلي، شخص لا تعنيه نهائياً «الأحداث اليومية»، ولا يتحمس إلا للهامش، والأطراف، وانعطاف الغيوم، والأعشاب البرية التي تغطي المساحات القفار في باريس.

شاعر؟ أظن أن كلمة شاعر ستضحكه. انتبهوا: قد يكون هناك نوع من الجاذبية للانعزاليين، لكن فيهم أيضاً نوعاً من القسوة تدفعكم إلى أن تبتعدوا عنهم.

عندما أنزلت المقعد الخلفي وضعت عليه فراشاً، كان قد كلفني مبلغاً بسيطاً من بازار بولفار «مينيلمونتان»، صار نومي ليلاً ممكناً. كنت قد علقت على الزجاج ستائر قاتمة اللون، ووضعت كرتونات فاصلة بين

Twitter: @ketab_n

فراشي والمقاعد: ومع سدادات الأذنين لم يعد يوقظني شيء سوى مرور عمال النظافة وشاحناتهم نحو الساعة السادسة صباحاً. بعض المعاكسين كانوا ينقرون على زجاج السيارة من وقت إلى آخر. طلب مني رجال الشرطة مرة أوراقي. اختفت نبتة البردي. هذه هي أخباري.

ولكي أحافظ على صحتي، ولكي أغتسل، كنت أذهب كل يوم إلى مسبح «لي توريل». إنه بالمجان بالنسبة إلى العاطلين عن العمل، وهو على بعد خمس دقائق، شمال جادة «غامبيتا»، بعد خزانات «ميرومينيل»، في تلك البقعة التي تحتلها البيوت الشعبية المصنوعة من القرميد والتي تفصلها الحواجز، صرت أحب أن أتجول هناك لأن الشرطة السرية الفرنسية تزرع منشآتها على طول جادة «مورتيه»، ففي ذاكرتي الجغرافية تبرق صورة قصر الكونت الغريب الأطوار «لو بيلوتييه دو سان فارجو»، إنه مهدم اليوم، لكن روحه بقيت تحوم في ذلك الحي الغريب حيث تبدو الشجيرات التي تقف على جوانب الجادة مثل الأشباح.

بعد أن أغسل وجهي كل صباح في بركة «والاس» في شارع «فايان»، أذهب لأتناول قهوتي واقفاً على بار (كونتوار) مقهى «لي اونيون»، في شارع «اورفيلا»، ثم أبدأ بالتسكع في الشوارع: أتجول طول النهار في الدائرة العشرين التي هي بالنسبة إليَّ الدائرة الأجمل في باريس والوحيدة التي بقي فيها نوع من الحياة. لم تتحول شوارعها إلى شكل من أشكال ديكور الأفلام: بعد فترة سيتم تعقيمها، كما بقية شوارع باريس. لكن حتى الآن لا يغامر السيَّاح الذين يزورون مقبرة «البير لاشيز» بالذهاب إلى ما هو أبعد من المقبرة: لا بد من أن أدلاء السياحة يقولون لهم إنه ليس هناك ما يستحق الزيارة بعد المقابر.

Twitter: @ketab_n

وبمعنى ما، هذا صحيح، ليس هناك شيء. ولكن هذا اللاشيء هو فرصة بالنسبة إليَّ. لأن المرء عندما يواجه عزلته، يكتشف جغرافية ما. إن العزلة هي بلاد تحترق. ونارها تفتح العيون، وهي بشفافيتها تعطي ألقاً للنهارات.

هذا لأني فقدت عادة أن أستغل وقتي: إن أيامي وليالي، تشكل مادة جافة وسائلة في آن واحد، خالية تماماً من أي نوع من الأنشطة. إن العطالة توحي للمرء بأن ما من شيء مفيد. وأن فكرة الفائدة على الأغلب غير موجودة. لم أعد سوى نزهة: من طرف إلى آخر للمربع الذي تشكّله الدائرة العشرون، عابراً نزولاً كل يوم الروابي الثلاث التي تشكّله، رابية «شارون» ثم «بيلفيل» وأخيراً «مينيلمونتان»، وأنا أوسع دائرة النزهة: وهي تفتح لي ممراً للعبور.

وليس من المستبعد أن نتجاوز بعض الحدود عندما نخصص من ست إلى سبع ساعات يومياً للسير: منها حدود التعب، وإنما أيضاً حدود أكثر خفية. عندما أسير صاعداً في شارع «البيرينيه»، ماراً بذلك الخط المتعرج الذي يعبر الدائرة من الغرب إلى الشرق، يحصل أن أدخل في حالة يختلط فيها الإلهام بالصحراء المقفرة: إنه فرح لا يمكن تسميته، بعيد عن كل وصف، على صورة تلك الشوارع التي تذهب بكل الاتجاهات والتي أعرج عليها، حيث تهب ريح الهائمين على الأشجار المنصفة، وفي السكك الحديدية تحت الأرض، والحدائق العمالية: يُهيَّأ لي أحياناً أن هناك غابة تتنفس تحت خطواتي، وأن أوراق الشجر تتبادل الهدير، هنا تحت الزفت، في قلب المدينة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 4 -

الانتحار

في تلك الليلة لم أشعر بالنعاس. بقيت خلف مقود السيارة أدخن السجائر. كانت انعكاسات الأضواء الخفيفة تتراقص على زجاج السيارة الأمامي. عبير الوستاريا يفوح من الحديقة ومعه عري كل التفاصيل التي تذكر بوضع الانتظار. سمعت الراديو يعلن أن معدل الانتحار في فرنسا يزداد بشكل مضطرد، وأن ذلك لم يعد حصراً على العاطلين عن العمل والفقراء بل يشمل أيضاً موظفي الشركات الكبيرة، وأحياناً مديريها. قالت المذيعة: «العمل يقتل»، مستلهمة سخريتها من التحذيرات التي نقرؤها على علب السجائر. أشارت أيضاً إلى أن كل عمليات الانتحار كانت متشابهة وتمت عبر القفز من النوافذ. كانت ملاحظتها صحيحة، ففي «باريس ومولان ونانسي وتولوز ونانت وستراسبورغ»، كما في جميع مراكز المدن الأخرى وفي المناطق الصناعية، كان المنتحرون كلهم يقدمون على إلقاء أنفسهم من النوافذ.

خطر لي أن ذلك يعود إلى كونهم يختنقون، يختنقون، ولا يحظون

Twitter: @ketab_n

بفرصة لكي يتنفسوا، يفتحون النوافذ بحثاً عن شيء رحب ويلقون بأنفسهم لينتهوا مهشمين على قارعة الطريق. إنها السابعة مساء، نهاية يوم عمل شاق. اضطروا إلى البقاء في المكاتب بعد ذهاب الموظفين الآخرين بسبب بعض المعاملات المتأخرة. بعد ساعة من الآن سيصل عمال التنظيف. ماذا يفعلون؟ أيتركون كل شيء ويعودون إلى بيوتهم؟ لقد وصلوا إلى نقطة أصبحت معها العودة إلى البيت غير ممكنة، لا بل إن كلمة عودة أصبحت بالنسبة إليهم أمراً لا يمكن تصوره. حتى أن تعبير (البيت) أصبح عبثياً في نظر الواحد منهم ويعطي طعم المرارة في الفم لدى لفظه. ها هو يشعل سيجارة ويبقى متوجساً من أن يطلق دخانها جهاز إنذار الحريق. يبدو المنظر الذي يشاهده من شباك مكتبه مأساوياً بقدر التصحر في ذهنه. يلقي بالسيجارة التي لم يكمل تدخينها من النافذة ويستعد. الجو ماطر كما هي العادة، وهو يعلم أنه سيتبلل، يقف على حافة النافذة الزلقة قليلاً ليلقي بجسده في المطر.

أطفأت الراديو وسألت نفسي: أليست حياتي أيضاً تشبه الانتحار؟ لقد اتخذت قراراً آخر بالهروب من عالم العمل الخانق، لكن إلى أين سيودي بي هذا الهروب؟ هناك ثغرة في هذا العالم والجميع ينبغي أن يستفيدوا منها، إنما عندما ينسلون في هذه الثغرة يموتون. قلت لنفسي: كل الناس، وبما فيهم أنا والمنتحرون بسبب العمل من قبلي، يبحثون عن هذه الثغرة. وبالفعل لقد وجدتها في عصر ذات يوم، وفتحت النافذة ورميت بنفسي، لكني لم أسقط بل وجدت نفسي أنزلق في الفراغ، في داخل هذا الفاصل (الانترفال) الغريب والذي أخاطبكم منه.

Twitter: @ketab_n

خطر لي بأني ربما لم أكن على قيد الحياة حقاً، وأن حياتي التي أعيشها الآن ليست سوى الانتحار بذاته. فقد انسحبت من الحياة في اليوم الذي اتخذت فيه من السيارة مسكناً ووضعت المفتاح في فتحة التشغيل دون أن أحرك السيارة.

يمكنني القول الآن، وبموضوعية، إنه كان بإمكاني أن أستمر في الكد مع الآخرين، وكنت سأحظى (بحياة شيقة) كما يقال، وأكسب الكثير من المال وأسافر، كما كان بإمكاني الحصول على بعض الرضى المقنع عوضاً عن هذه الوحدة التي أعيشها، والجمود المقلق الذي يخنقني هذه الليلة. بالفعل، إن الخيار الذي اتخذته كان انتحاراً، ولكني على الرغم من ذلك على قيد الحياة، وآمالي ورغباتي في الحياة هائلة. رميت بنفسي من النافذة لكني لم أسقط. أنا موجود على حافتَي النافذة في الآن ذاته، كما لو أنه يمكن للفراغ أن ينعكس للجهة الثانية، وللانتحار أن ينقلب على ذاته. هل هنالك من مقلب آخر للانتحار؟ ففيه يعيش جسدي وأفكاري وفيه أقوم بنزهاتي.

كان يوم السبت، الساعة الواحدة ليلاً تقريباً. خرج بعض الأزواج من المطعم الهندي في آخر الشارع وأطلقوا ضحكات تستحضر أجواء الاحتفال. من المؤكد أنهم في طريقهم إلى سهرة راقصة في حانة «لابيلفيلواز» أو في مقهى «شيري». أشعلت ولاعتي ورحت أرقب أجسادهم المرتجفة من وراء اللهب. كانت السماء تعج بنجوم تملأ قلبي شجناً. كنت أعيش كل لحظة بلحظتها وفي هذه الليلة أحسست بأن السيارة باتت ضيقة وصغيرة على أن تتسع نهم السكينة التي كانت تتأبطني.

Twitter: @ketab_n

قبل قليل وحول موضوع الانتحار، قامت المذيعة بمحاورة أحد المفكرين الشباب الذي يبدو أن كتابه الأخير أثار ضجة كبيرة، فشرح لها أن انهيار الأسواق بات الأفق الطبيعي الذي يتجه إليه العالم، وأن الإفلاس سيكون أكثر العوامل تأثيراً على مجمل الكرة الأرضية وبشكل دائم، وأنه من الآن فصاعداً لن يكون هناك سوى «الأزمة»، لأن كلمة أزمة هي المرادف لشكل العالم الذي نتجه نحوه. وأن الانهيارات القادمة لن تكون فقط على مستوى البورصات، بل ستكون أيضاً على المستوى الوجودي والنفسي. وحتى حيواتنا لن تكون سوى سلسلة من الانهيارات تتراكم الواحدة تلو الأخرى، كما القيامة. رأت المذيعة أن الشاب يبالغ في تصوراته، فالحياة في نظرها ليست بهذه الفظاعة وأن كل هذه السوداوية مزعجة ومحبطة للمستمعين، حتى أنها، من شدة انزعاجها، طلبت من الباحث الشاب أن يعتذر من المتابعين للحوار. وبدلاً من أن يرد عليها، ضحك بقوة ضحكة جنونية احتلت وحدها لثوانٍ قليلة أثير الإذاعة كله. كانت من القوة بمكان كما لو أن شيطاناً استحوذ على هذا المفكر الشاب. وكان لهذه الضحكة أن تستمر لوقت أطول لولا أن المذيعة قاطعتها بطلب بث اللازمة الموسيقية.

أحسست بالحماسة تعتريني من هذه الضحكة التي انطلقت من مذياع السيارة ووصل صداها إلى الحديقة الصغيرة، وحامت في الظل حول الشجيرات المنصفة، إنها تحوم بخفة في حلقات دائرية حيث يضيء حظي. غادرت السيارة لأتبعها.

Twitter: @ketab_n

- 5 -

فيراندي

دخلت إلى مطعم «زوربا» في حي «بلفيل» وطلبت زجاجة بيرة. كان ذلك في الرابع من حزيران، أتذكر هذا التاريخ جيداً لأني في ذلك المساء سمعت لأول مرة بالثعلب الشاحب. كانت جدران المكان ملونة بلون أخضر، شبيه بالضوء الأخضر الباهت الخاص بعالم الحيوان، الذي يتحدث عنه كتاب الباردو البوذي. ضوء النيون كان يضفي على وجوه الرواد شحوب الأشباح. إثارة مرضية تسود الجو، وتوحي بأن السهرة مشبعة بالكوكائين. جميع الرجال يلبسون المعاطف السوداء نفسها وعلى وجوههم لحى عمرها أربعة أيام، أما النساء فقد كانت عيونهن تلمع مترقبة اصطياد الرجال. الكل كان ينفعل برهبة المخدر من جراء الكحول. كانوا كحيوانات برية تتمسح بالجدران، وتذكر بمغارات إنسان ما قبل التاريخ.

صادفت فيراندي وأنا أبحث عن مكان أجلس فيه. لم أكن قد رأيته منذ فترة طويلة، حتى أنه كان يظنني ميتاً. أطلق صيحات الفرح ودعاني

Twitter: @ketab_n

إلى طاولته حيث عرفني على رفيقة دربه زويه، شابة طويلة القامة سمراء ذات ضحكة مغوية، وعلى صديقه «بيزون» - الجاموس الأميركي - القاطب الحاجبين كأنه ملاكم يضع على رأسه قلنسوة، وعلى «ميريام»، الشابة ذات الشعر الأصهب الطويل، وذات الوجه الأبيض جداً والمليء بالثقوب المزينة بالحلي.

كلهم كانوا «فنانين». كانت زويه تصور أفلاماً عن النفايات، كانت شغوفة بالنفايات، إذ كانت تتنقل بين المكبات المحيطة بباريس كي تعد أفلام فيديو تتخذ من تراكم النفايات موضوعاً لها. أما بيزون، فقد قال لي فيراندي إنه «كان يقوم بعروض عن التدمير» كما يسميها هو، وهذا يعني بأنه ينحر دجاجاً وأرانب في مكان عام ثم يعلق أعضاءها على جدار مع إعادة ترتيبها بطريقة فنية. ميريام كانت متخصصة بالرسم. أشارت لي بحركة خجولة إلى جدارية الحيوانات لتقول لي إنها هي من قامت بتصميم ديكور «زوربا» برسم كل تلك الجواميس والذئاب والثيران والوعول والظباء والحيوانات المفترسة المضطربة رعباً، والتي كانت تسبح في خليط فوضوي من الأصبغة السوداء والوردية، وفوقها اللون الأخضر، بحيث بدت مثل الطمي، مثيرة للغثيان.

أما بالنسبة إلى فيراندي، فقد حاز على شهرته في مجال الفن المعاصر بتصويره لكاميرات المراقبة. إذ أن فيراندي يعتبر أن العدسة المكبرة في كاميرا التصوير تبدو كقناع ضخم لساحر يطلق تعاويذه. ومن خلال ذلك، يرغب الفنان في أن يظهر كم أن عين الرقيب ظلامية ومستترة. ففي كل زوايا الطرقات وفي أصغر دكان أو مرأب تحت الأرض، تقوم

Twitter: @ketab_n

الدولة البوليسية بممارسة الشعوذة علينا عبر هذه المراقبة الدقيقة. يضيف فيراندي أن مرض السياسة يختبئ في العين المعدنية لكاميرا المراقبة، وحين تمرض السياسة فإن السحر هو ما يحل محلها. وعلى حد تعبير فيراندي، لقد أصبحنا في فرنسا اليوم هدفاً لشعوذة تضع كل واحد منا في حالة من سلبية طفولية أمام الخطأ، فالعين المسلطة بشكل دائم على كل حركة نقوم بها تعطينا الانطباع بأننا، افتراضياً، في كل لحظة على خطأ.

كان قد انقضى شهر كامل لم أتكلم فيه مع أحد: لم أخرج مساء منذ مدة طويلة. تخلص جسدي شيئاً فشيئاً في تلك المدة من كل ما له علاقة بالكلام. فبانشغالي الدائم بعالم التفاوتات، لم يعد هذا الجسد معتاداً على الاحتكاك مع الآخرين. لذا كانت تلك الجلبة في «زوربا» مثيرة لأعصابي، هذا الكم من الضوضاء المتركز كله في مكان مظلم جداً، له وقع الانهيار الثلجي على نفسي.

أضف إلى ذلك أن فيراندي وأصدقاءه كانوا يشربون مثل المجانين. امتلأت الطاولة بزجاجات النبيذ التي تجرعوها قبل أن يطلبوا الفودكا والبيرة والتيكيلا. أخذت أشرب معهم، إلا أني ما لبثت أن سكرت تماماً.

إنهم يعتبرون أنفسهم مجموعة من المتمردين، وبحسب رأيهم عليهم أن ينظموا أنفسهم بشكل سري لمواجهة «المُنتَخب الجديد» الذي، بحسب رأيهم أيضاً، لا يعدو كونه رجل أمن منحرف، ينشد إنشاء دولة بوليسية، بحيث لا يقدر أحد فيها أن يفكر في التصرف بشكل يتعارض وقوانينه. كان البيزون مهووساً بـ«المُنتَخب الجديد» حتى إنه كان يهتف باسمه بنوع من الهوس المشكوك به. وهو يرى أن الوقت أصبح مسموماً

Twitter: @ketab_n

بابتذال فاسد يستدعي أن يُرَدَّ عليه بأعمال متطرفة، وأعلن بيزون أنه مستعد لمواجهة الشرطة في سبيل ذلك.

كانت زويه، ولكونها مناضلة اشتراكية، مقتنعة بأنه أصبح من المُلح الاتجاه نحو التطرف. سألتني بعد برهة والشك يعتلي محياها في أي جانب كنت أقف. أجبتها بأني للأسف لا أحمل أوراقاً تدل على هويتي إن كانت راغبة في التحقق منها.

غضبت وأرادت أن تعرف لمن أعطيت صوتي في الانتخابات الأخيرة:

- «شتينر».

* «من يكون؟».

- «ماكس شتينر».

انفجر فيراندي ضاحكاً:

- «كان كارل ماركس يكرهه، أليس كذلك؟».

* «لا، ماركس كان معجباً به».

رأى فيرندي بأن المسألة الآن تتلخص بالاختيار ما بين الفوضى أو الخوف من الفوضى. وأن الوضع في العالم على وشك الانفجار، لأن العالم قد تفكك وبسرعة، كما في اليونان وإسبانيا وإيطاليا وحتى الدول العربية، وعاد العصيان والشغب ليصبحا من جديد وسيلتَي التعبير الأكثر عفوية. بالنسبة إلى فيراندي، عملت الرأسمالية على مر قرن من الزمن كل ما في وسعها كي تجعل من حصول الثورات أمراً مستحيلاً.

Twitter: @ketab_n

الشيوعيون أنفسهم ساهموا في هذه المؤامرة الهادفة إلى الحفاظ على النظام القائم. فظنت الرأسمالية أنها حققت أخيراً حلمها بتشكيل مجتمع متمحور حول معاييرها الخاصة عبر إقصاء البروليتاريا باستخدامها كيد عاملة تم التضحية بها في الحربين العالميتين، ثم اختراع حكم الطبقة الوسطى بدءاً من العام 1945.

عرض الواحد تلو الآخر وجهة نظره، إلا ميريام التي ظلت صامتة. كان البيزون ينحني نحوها من وقت إلى آخر، وتحت الطاولة كان يضع يده بين فخذيها. فيراندي، بدوره، كان يداوم الذهاب إلى الحمامات بصحبة زويه، ليعودا منها جاحظي العيون وشاحبين بسبب تنشق المخدرات بكثرة. عرض فيراندي عليَّ بضع جرعات دون أن يلفت الانتباه. قبلتها، فقد كنت أصلاً أشعر أني أحلق بخدر من شدة السكر.

بدأت أشعر بالسوء وبنوع من النشوة المرعبة حين بدأ البيزون بسرد ذكرياته عن قمة الثمانية الكبار في جنوى عام 2001، وقد عاشها كتجربة أساسية في نضاله. كنت أسمع صراخاً وأرى أشياء لزجة تمر بين الطاولات، كما لو أنها قناديل بحر. كنت أتلفت حولي، فأرى عظاماً ونقي عظام ودماء، لكني لم أكن أشعر بأية رهبة أو قلق. تأثير الفودكا كان كبيراً لدرجة أني كنت أرى الحيوانات تدور في الظلام من حولي كما لو أنها تمثل في مسرحية جان، كما لو أنها خيالات تتحرك. رأيت أحصنة وغزلاناً وطيور قبرة حمراء تلامس كؤوسنا. من خلال انتشائي هذا التحقت برعب الحيوانات ورحت أركض معها على حافات الجدران، وأغمضت عينيَّ لأعيش هذا الاندفاع من اللهاث بصمت.

Twitter: @ketab_n

زاد الكحول من إحساسي بالهاوية التي كنت أنزلق إليها، لم أكن أشعر بضرورة أن أصحو من حالة السكر: منذ شهر، وأنا أعيش في هذه الحالة. أما بالنسبة إلى تلك الليلة فقد كنت أحاول فقط أن أنتفض في عالم قلبته عزلتي رأساً على عقب.

تابع البيزون دون توقف سرده لما حصل في قمة الثمانية: حكى عن صدام القوى التي كانت حاضرة هناك، وكيف فهم العالم أخيراً أن ثمة انقساماً موجوداً بين القوى المناهضة والقوى التي تقمع، واستنتج أن هذا يعني الإقرار بوجود عالم آخر.

شوّشت الفودكا، والحبوب التي أعطاني إياها فيرندي، ذهني. كنت أبتسم ببلاهة ولم أعد أستطيع متابعة كلام بيزون. ضحكة «المفكر الشاب» على الراديو، الضحكة نفسها التي دفعتني إلى ترك السيارة والمجيء إلى هنا، كانت تدمر الحديث بيننا. لم أعد قادراً على الاعتقاد بشيء، أقل كلام كان يحترق لتتبعثر الكلمات كرماد مجنون. الضحك يطفئ ظمأ غير محدد المعالم، وفيه تنضح سعادة يختبئ فيها الشيطان. كنت أشرب وأضحك وأنا أميل برأسي نحو الحيوانات.

كان موقفي الضبابي يثير حنق زويه فأصرت أن تعرف ما هو رأيي الصريح في الأمر. اقتربت مني وراحت تسألني بإلحاح إن كنت يمينياً متنمرداً؟ أو من مؤيدي اللافعل؟ أو إن كنت أنتمي إلى أولئك الأشخاص الذين يستفيدون من المجتمع دون أن يقوموا بشيء لتغييره؟

تشنج فكاها الصغيران وباتت النظرة التي ترمقني بها باردة، وسيطر على شفتيها رجفان بسيط نابع من شعورها بالرضا من أنها حشرتني في

Twitter: @ketab_n

الزاوية. قلت لنفسي إن زويه هذه محترفة، إذ أنها تعتقد بأننا نجتاز الآن لحظة الحقيقة. بادرتني بالسؤال:

- «لمن أدليت بصوتك؟».

* «لا أحد».

- «ألم تقترع؟».

وقع جوابي على مسمعها كالشتيمة وانتابها الذهول. فإن الشخص الذي لا يمارس حقه الانتخابي ليس إلا خائناً بالنسبة إليها. لا يمكن للمرء أن لا ينتخب! كيف يمكن للمرء أن لا يستفيد من هذا الامتياز الذي تمنحنا إياه الديمقراطية؟

تمتمت ببضع كلمات لم تسمعها فطلبت مني أن أكرر ما قلت. فتثاءبت.

ارتمت غاضبة نحوي ممسكة بياقة قميصي بيد ومهددة بضربي بقبضة يدها الأخرى. في رأيها إن الأشخاص الذين على شاكلتي هم الذين أوصلوا وغداً مثل ذلك الرجل إلى سدة الحكم، وإنني شخص لا مسؤول، وإنه يوماً ما سيكون على المجتمع أن ينتقم من نوعية الناس هذه. كانت تظن بأن الامتناع عن التصويت جريمة وبأن جميع الممتنعين يجب أن يمثلوا أمام القضاء بتهمة ارتكاب جريمة ضد الديمقراطية.

خطرت في بالي جملة لا أذكر إن كنت تلفظت بها وقتها أم لا. لا لم أقلها، لا أظن ذلك. ففي تلك الليلة كل ما كان يعنيني هو الضحكة. لا شيء كان أعمق من هذه الضحكة التي وفرت عليَّ مؤونة الكلام.

Twitter: @ketab_n

تقول الجملة التي ما زلت أذكرها: السياسة تنهش أجساد الضعفاء الذين يؤمنون بها. وهذه الجملة كانت جل اعتقادي في ذلك الوقت. ربما هي نابعة أيضاً من ضحكة «المفكر الشاب»، أو ربما كانت مجرد تعبير عن ضحك لا يخلو بتاتاً، على الرغم من ذلك، من الجدية.

Twitter: @ketab_n

- 6 -

ميريام

أشاح بيزون بوجهه عني تضامناً مع زويه، في حين أن فيراندي لم يُبدِ أي اكتراث بالأمر. كل ما كان يهمه هو النزول إلى الحمامات. أضفى صمت ميريام القليل من العمق على هذا المكان الذي كنا نختنق فيه. رحت أتأمل وجهها بفرح متواطئ، فجفونها كانت تفتح على عالم يحلو فيه الخمول.

بدا لي في تلك الليلة أن الثمالة هي السياسة الوحيدة. قلت في نفسي إن الوجود يكمن في التناغم مع تلك النقطة التي ينزلق عندها كل شيء إلى النسيان، وانطلاقاً من هذا النسيان تعود الأشياء إلى الحياة متجددة الواحدة تلو الأخرى. كل شيء يعيق الحياة إلا السكر والصمت، فهما وحدهما ينزعان الثقل عن الوجود الإنساني.

أخذ كل من بيزون وزويه يحدثان فيراندي. لا بد من أنهما كانا يلومانني. لم أعد أنصت إلى ما يقال، فمنذ بدء السهرة لم تفتأ ميريام تظهر لي كما لو أنها تهبط ببطء شديد درجة درجة حتى تصل إلى مستواي

Twitter: @ketab_n

وكنت أراها عبر لقطة مكبرة. أستطيع أن أميز بوضوح نمشات وجهها، وأسترق النظر إلى ما لا يخفيه قميصها من نهديها، أستطيع أن ألعق أظافر أصابعها المدهونة بطلاء أحمر، وأن ألتحف بذهولها بشهوانية.

انتصب قضيبي كما لو كنت في حلم يقظة. وها أنا أتراجع إلى الخلف على وشك أن يغمى علي وأنا محاط بثور مصعوق ووحيد قرن مراوغ. يبدو لي هذا السقوط كأنه قربان يقدم على أرواح الموتى الذين أسمع قهقهاتهم في كؤوسنا.

هل فهمت ميريام ما يحصل لي؟ لكنها أخذت تنظر إليَّ بفضول بعد ذلك كأنها انتبهت لوجودي منذ برهة. حزن يكتنف عينيها لا يمكن للكلمات أن تصفه. لاحظت أنها كانت ثملة هي الأخرى، لا بل كانت الأكثر سكراً فينا جميعاً.

شد انتباهي على أحد الجدران ثعلب صغير خرج عن قطيعه، واقفاً بثبات ورافعاً رأسه إلى السماء.

سألت ميريام عنه، فأجابتني بأنه حيوان مقدس وجدت صورته في كتاب عن شعوب الدوغون. صورته الأصلية مرسومة على جروف باندياغرا الصخرية في مالي حيث يسمونه بالثعلب الشاحب.

كانت تتذكر بشكل غامض أنه يمثل القطيعة أو الاستقلالية. هو ابن عاق قتل أباه، ورقصته تمثل الاحتفال بموت الله.

لم تكن ميريام تعرف أكثر من ذلك عن تفاصيل الأسطورة، إلا أن تعلقي بالثعلب كان واقعاً مؤكداً. هناك ثمة إله خفي يحدّق بنا من خلال

Twitter: @ketab_n

هذا الثعلب الذي يشبه بياضه لون بشرة ميريام الشاحبة، لكن هل كان وجوده الناحل يرمز إلى دفع البلاء عنا أم العكس؟ تولد عندي انطباع بأن الفضل يعود إليه في تجنبنا الجحيم.

أخذ فيراندي يحدثني عن هويلبك[4]، وعن الأزمة، وعن الاستعباد الذي بدأ يأخذ في السنوات الأخيرة شكل جائحة عالمية. يعتقد فيراندي بأن العالم الذي نعرفه لم يعد موجوداً وقد حل مكانه ثقب، الأمر الذي أدركه هويلبك جيداً. كل إنسان على الأرض يسقط في هذا الثقب ويمكن لسقوط كل منا أن يأخذ أشكالاً مختلفة، والحقيقة أن الفن لم يكن سوى وسيلة لوصف هذا السقوط.

كنت قد بدأت أستعيد وعيي، فأجبت فيراندي بأن هويلبك قدم توصيفاً وافياً لانكماش المجتمعات الإنسانية ضمن الثقب، إلا أنه أخطأ باعتبار هذا الثقب جرحاً لا يسبب إلا التعاسة. قلت لفيراندي: «صدقني، هنالك شيء آخر في الهاوية. الثقب هو شيء آخر، هو فرصة يجب اغتنامها».

وأضفت:

- «لقد أخطأ هويلبك لسبب بسيط، والبرهان هو أنني موجود».

بدأ كل شيء يأخذ منحى سريعاً. لم أعد أرى لا بيزون ولا زويه على

4- مؤلف ومخرج سينمائي وشاعر فرنسي، تثير كتاباته الكثير من الجدل. خاصة روايته «الخضوع» التي يتنبأ بها بوصول حزب إسلامي إلى حكم فرنسا في المستقبل، وأثر ذلك على الحياة الاجتماعية.

Twitter: @ketab_n

الطاولة التي كنا نجلس حولها، كما أخذ فيراندي يتمشى بين الطاولات مترنحاً. أما أنا فبقيت جالساً بجانب ميريام أمص أصابعها.

بدأ قطيع الأحصنة السمراء بالتحرك على الجدار. كانت خطومها المرسومة بالصباغ الأسود تصرخ من عمق المغارة معلنة أن العطش أقوى من الرغبة في الفهم، أو أن نور المعرفة ليس بالأساس سوى تعطش. نشوة السكر تجعل من الحياة لحظة تتمدد حتى المهات. السكر هو ما يصرخ في كؤوسنا وهو ما يجعل الحيوانات تركض. الثعلب الشاحب يتقدم الأحصنة، صادحاً بغناء سمعته يخرج من بين فخذي ميريام وهي تنزل إلى الحمامات.

تبعتها وأنا أترنح، صوت نقر كعبي حذائها على الأرض كان يناديني. كانت تمسك بيد كأس فودكا، وبالأخرى كانت تستند فوق درابزين الدرج. انسللت من خلفها ووضعت يدي على مؤخرتها الدافئة، ورحنا ننزل الدرج سوية وأنا أرى نجوماً تلتمع في ضوء الحانة الأخضر الخافت.

لدى دخولها الحمامات، استدارت ميريام نحوي واتكأت بمؤخرتها على المغسلة. قبلنا بعضنا بحرارة، فتحت أزرار قميصها لأكشف عن صدر ثعلبي وعن نهدين أصهبين جميلين. أغلقت عينيها وهي تمص الإصبعين اللذين وضعتهما في فمها. بدأ جسدها بالتلوي إثارةً وأنا أداعب فخذها صعوداً، لأضع إصبعي في فرجها من تحت سروالها الداخلي. هي أيضاً كانت تداعب لي قضيبي من فوق البنطال. وعلى الرغم من كم الكحول الذي احتسيته، كنت مسروراً بالانتصاب الملوكي الذي وصل إليه قضيبي.

Twitter: @ketab_n

في اللحظة التي ترفع فيها المرأة تنورتها وتنزع حمالة صدرها لتهديك جسدها العاري، لا يمكنك أن تفكر في شيء آخر. عليك أن تكون معها بكل جوارحك، فهذا الجموح يتطلب أن يكافأ بسيل من القبلات.

سيطرت الرغبة عليَّ كلياً وأنا ألعق لها عنقها، فالبشرة ناعمة جداً في هذه المنطقة من الجسد. ارتعشت بلطف حين انتقلت من التقبيل إلى العض. سأعض لها نهديها بقوة لأفرغ كل حرارتي في الجرح. كانت أصابعها تبحث عن سحاب سروالي، لتنزله وتبدأ بمداعبتي بيدها الدافئة. فجأة توقفت ودفعتني عنها لدى مرور بيزون في الحمامات. هل رآنا وهو يبحث عن حمامات الرجال؟

ودعت ميريام وخرجت من الحمامات راكضاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 7 -

مثل الكلب

الساعة الرابعة فجراً، خرجت من حانة «زوربا» مسرعاً. الدلب في الشارع العريض كان نضراً، فانفجرت ضاحكاً. أنا أيضاً أحس بالانتعاش. كان الجو ليلاً يعبق بالفرح. الساعة الرابعة فجراً وقضيبي لا يزال يتدلى من بنطالي. رحت أركض سعيداً على طول بولفار «مينيلمونتان» وقضيبي يتدلى في الهواء.

الركض السريع لفت نظري إلى هدوء الليل الذي تستكين فيه شراسة الكون. هل هنالك من أحد؟ كان من المفيد أن أعدو هكذا في هذا الفضاء الواسع الفارغ. بتركي الحانة مسرعاً، تركت معها العالم المتكلم، ذاك العالم الذي ترمقه دوامة الكواكب بعين الشفقة. في المدن، وحدها الأشجار تتناغم مع الدوار الذي تمثله السماء للأرض، إذ أنها تنمي في المكان حيوية تستوعب ضحكتي. تواءمت سكينة الساعة الرابعة مع ثمالة السماء، فتمازجت كل حركة في الكون مع الدم الذي يُضخ في الفم.

صادفت كلباً أسودَ من نوع وولف على مفترق طريق مقبرة «بير

Twitter: @ketab_n

لاشيز». كان يبدو لي منهكاً. نظر نحوي نظرة سريعة ودلف نحو جادة «غامبيتا» من جهة حديقة «شامبلان»، وكان يمشي بمحاذاة سياجها. كنت أنا الآخر أسير في هذا الاتجاه، كما لو أنني أتبع الكلب. في الحقيقة، تولد لدي شعور بأن الكلب يتقدمني ليدلني على الطريق وليرسم لي معبراً. عندما يتواجد في الشارع طيف كائن ما فهو يشد الانتباه، والطريق الذي يتبعه يعنيك أيضاً. فأحياناً ينتهي بي الأمر إلى أن أسير على خطى امرأة ذات عيون لامعة، وأن ألاحق الخطوات العرجاء لرجل مسكون، وأن أعيش الغليان الذي يستثيره ظهور إحدى هذه المخلوقات المحمومة، وأن أنصت إلى صوت أدنى شعلة يمكنها أن تحرف نهاري عن ما هو ذي جدوى. بما أن العالم أصبح بلا هدف، فإنه لم يعد يساوي أكثر من قطعة زجاج مكسورة أو من عشبة بحر، فإن أقل فرصة تتاح أمام المرء كي يربك نظامه القائم تكون مثيرة. لقد فهم أولئك الذين يتسللون بين الهروب والالتجاء أن الحضور ليس سوى منفى، وبأن لا شيء آخر موجود سوى هذا المنفى الذي تسبقنا إليه الحيوانات.

كان الكلب ينزف. توقف في ساحة «غامبيتا»، أمام مدخل المترو ليشم علبة قمامة، تابعنا طريقنا صعوداً، وهو يلهث. كنت أسير خلفه على بعد خطوتين، وكان يلتفت نحوي من وقت إلى آخر، إلا أن شدة ضعفه الواضحة لم تكن تسمح له لا بالهروب ولا بالاقتراب مني. خلافاً للعادة، لم يكن أعلى الجادة مُضاءً، وحدها كتلة مستشفى «تينون» كانت تنتصب بادية للعيان، بيضاء كالسراب، لتكسر سواد الليل.

مررنا في شارع «الصين»، بجانب السيارة التي ما زالت مركونة

Twitter: @ketab_n

هنا والمغلفة بقبة من بتلات زهر الوستاريا. انتابتني رغبة جمة في أن أجلس خلف المقود وأن أفتح صندوق السيارة الداخلي لأستلذ بالضوء الأزرق الصغير، إلا أني استمررت باللحاق بالكلب.

استمر بالصعود حتى «سان فارغو» لينعطف فجأة يميناً ويدخل شارع «دارسي» متجهاً نحو الأرض المهجورة المرتفعة قليلاً والتي فيها خزانات مياه «توريل». استطاع الكلب الدخول بسهولة عبر السياج، أما أنا فقد نجحت في القفز من فوق السور بصعودي على النفايات المتراكمة بجانبه. هل من أحد يذكر أنه هنا في حي «التوريل» هذا، في الدائرة العشرين، كانت الجمهورية الفرنسية قد أقامت، بدءاً من عام 1941، معتقلاً جمعت فيه من سمتهم «غير المرغوب فيهم» من جمهوريين إسبان، وأعضاء الألوية الأممية المحظورين في بلدانهم، ومن لاجئي أوروبا الشرقية الهاربين من النازية، ومن المقاومين الشيوعيين والغوليين، ومن اليهوديات اللواتي سيتم إبعادهن إلى معسكر «أوشفيتز»؟

عندما نتمشى في شوارع باريس نظن أننا في نزهة، لكننا في الحقيقة ندوس على جثث الموتى. وحده الشخص العارف يستطيع أن يروي التاريخ الحقيقي لهذه المدينة.

اضطجع الكلب على العشب، زاد لهاثه. لم يقم بأية حركة حين اقتربت منه، ولو أن نظرة عينيه كانت غائرة وتنم عن خشية. استلقيت بجانبه على العشب الرطب الفواح برائحة المطر. وضعت يدي بلطف على خطمه المتأوه ورحت أداعبه وأكلمه بصوت خافت. لسانه كان غارقاً في لعابه، والعشب في دمائه.

Twitter: @ketab_n

تصدر الحيوانات لحظة نفوقها صوتا مميزاً. يبدو أن أصوات البشر تأتي من هنا، أقصد بأن أصواتنا هي ذاكرة موت الحيوانات. المسافة التي تقطع من خلال الكلمات تستدعي ليلاً تضمحل فيه التمايزات. بدأ الكلب يئن وبدأت أفقد وعيي من دفء عالم اللعاب واللهاث هذا. التقطني الأنين الذي كان يصلني من بعيد، بهذه الرقة المفزعة التي تدعو المرء إلى النوم. هل أصبحت فرداً من القطيع الذي يسكن جدران زوربا؟ كنت أسمع دقات قلب الكلب تخرج من بطني.

يلفظ الحيوان أنفاسه الأخيرة ككلام شفاف. تلك اللحظة الربانية، التي تموت في كل واحد منا، التي نغفل عنها بضرورات البقاء والراحة، أحسست بها تنبض في نفس الكلب المندفع مثل البرق من حنجرته. هل يمكن للبرق أن يتداول؟ كان رأسي قريباً من خطم الكلب بحيث أنني أحسست بنفسي تبتلع اختلاجاته. استسلمت لكل ما كان يأتيني منه، وفتحت ذراعي عريضاً لأحتضنه قبل أن ينفق ويتشنج فكاه ويتوقف لسانه عن الحركة.

هذا الدم المسفوك ترفع بي عن حدود المنطق، فأولئك الذين يتأثرون به لا يعودون يتكلمون بصيغة الأنا. فقد بادلت جسدي بجسد الكلب.

فهمت وأنا مستلقٍ على العشب بجانبه، أن الكلب بموته، قدم لي صوته كهدية، وحده الصمت قادر على قبولها. ذاك الصمت الذي لا يحتاج أبداً إلى الأحياء، والذي، ومع ذلك، لا ينتمي إلى عالم الموت، هو صمت يمزق حدود الروح.

بدأت أشعة الشمس تشرق في الأفق من جهة بوابة «دو ليلا»،

Twitter: @ketab_n

ملونة السماء بالبرتقالي والأحمر. وضعت يدي على جرح الكلب وقمت بفرك وجهي وخدودي وجبهتي بدمه اللزج. وضعت منه أيضاً في فمي وأغلقت عيني لأنام. العشب يتحرك والشمس قد أشرقت. لقد انسل الكلب في روحي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 8 -

طريق مسدود اسمه «الشيطان»

سأسرد الأحداث تباعاً كما حصلت، وسأحاول أن لا أغفل عن أية مرحلة منها، سأشرح لكم كيف انتهى بي الأمر بلقاء الثعالب الشاحبة. بالفعل إنه لمثير للدهشة أن يكون مثل هذا اللقاء ممكناً في مرحلة مغلقة لهذه الدرجة، إلا أنني أرى فيه شيئاً من المنطق، فهناك علامات متعددة سبقت اللقاء وجعلت منه أمراً حتمياً. سأحاول أن أستذكرها كلها وأن أوضح تسلسلها، إذاً فالسرد التالي سيكون قصة العلامات التي أوصلتني إلى اللقاء بالثعالب الشاحبة.

بعد السهرة في زوربا ببضعة أيام اكتشفت شيئاً. كنت قد مكثت طويلاً في السيارة وأنا أفكر في ثعلب الدوغون الصغير وبالبردي وبميريام التي كنت لا أعرف عنوانها ولا رقم هاتفها.

كنت أخرج في فترة ما بعد الظهر لأستلقي على المرج في حديقة «البوت شومون»، أما صباحاً، فقد كنت أذهب لأتفحص تفاصيل الحي بدقة كأنني عالم إثنيات. كنت أقف أحياناً بلا حراك في الشارع مشدوهاً

Twitter: @ketab_n

بباقة من الفروقات اللونية في السماء، أو بجمال العمارة العمالية في شارع «الموزايا»، أو بمنظور جديد مفاجئ، ناحية «تلغراف»، حيث ترحب بي الأشكال والألوان.

إن عالم التفاصيل يزيد من إمكانية استجلاء الأمور. كان وجودي في تلك المرحلة معلقاً بخيط رفيع، وخفة مضنية من أجل لا شيء، كنت أغرق في صمت يصل إلى حد البلادة.

لطالما تم الخلط بين فكرة وقت الفراغ وفكرة البطالة، لكن الزمن كان دائماً حراً، فلا شيء أكثر فراغاً وأكثر طاعة من الوقت، إن الإنسان هو من يفسده بملئه بمعمعاته الحمقاء. هل من الممكن أن يقيم المرء في الفراغ؟

كنت كل يوم أستيقظ في وقت أبكر من اليوم السابق، عادة تمر شاحنة جمع النفايات في شارع «الصين» نحو الساعة السادسة صباحاً، وأنا أستيقظ على صوت بوابي العمارات وهم يجرون الحاويات نحو الرصيف. أفتح بداية الباب الخلفي وأنزل من السيارة لأغمس وجهي بأزهار الوستاريا، ولأشعل سيجارتي الأولى. ألتقط بعد ذلك الحقيبة التي وضبت فيها أغراض المسبح وأذهب لأحتسي القهوة في مقهى «بوتي أونيون» حيث أقرأ الصحافة اليومية ثم أتوجه إلى المسبح الذي يفتح أبوابه عند الساعة السابعة.

كان المقهى مغلقاً هذا الصباح. فقررت أن أتوجه إلى حي آخر، وذهبت إلى مقهى «الفيولون دانغ» الذي افتتح مؤخراً في حي «بانيوليه» عند محطة مترو «أليكساندر دوما».

Twitter: @ketab_n

اكتشفت المخطوط في طريقي إلى هناك.

هل تعرفون الزقاق المسدود المسمى بالشيطان؟ ذاك الذي يقع في جنوب الدائرة العشرين، في قلب حي «شارون». إنه حقاً موجود وبجانبه تماماً يوجد ممر «الله». العثور صدفة على زقاق بهذا الاسم في ذلك الصباح أثار فضولي. قررت أن أسلكه وأستكشفه، ربما كنت أتوقع أن أجد فيه تجليات سوداوية، أو أن أختبر شيئاً شيطانياً.

لم تكن الساعة قد جاوزت السابعة حين رأيت، بجانب بقالية «أ-د» في شارع «البيرينيه»، أربعة رجال يمسكون بأكياس كبيرة من البلاستيك ويقلبون نفايات الحاويات بصمت. كان الطقس حاراً، إلا أنهم كانوا يلبسون معاطف مطرية، ومنهم من كان يغطي رأسه بالقبعة.

في هذا الجو الهادئ، وبسبب الصمت، كانت الدقة تحكم حركاتهم، فقد كانوا يفرزون النفايات بتأنٍّ كما لو أنهم أرادوا أن لا يخلخلوا الترتيب الذي ألقيت به.

بعد برهة، أخرج أحدهم من حاوية الزبالة الخضراء أربع قطع من اللحمة المفرومة المغلفة بالسيلوفان، قام بتوزيعها على الآخرين ليقوم كل واحد منهم بوضع حصته في جيبه. أعادوا بعد ذلك وضع كل شيء في مكانه ببطء، وأغلقوا الحاويات واختفوا.

أشعلت سيجارة لدى دخولي زقاق الشيطان. كان الضوء من القوة لدرجة أنه أذهلني. لم أجد في الزقاق سوى فسحة مرصوفة وأبواب ونوافذ تطل عليها، لكن ما أثار انتباهي هو كتابة بحروف كبيرة ولامعة،

Twitter: @ketab_n

مكتوبة بالطلاء الأحمر على الجدار في صدر الزقاق، تقول:

لا وجود لشيء اسمه مجتمع.

اقتربت من الكتابة وأنا أبتسم. قلت في نفسي: هذه الجملة صحيحة. بالفعل المجتمع غير موجود. إنه مجرد نظام يخضع له الإنسان، إما بحكم العادة أو خوفاً من أن يتم استبعاده منه فيشقى.

أحسست في الوقت نفسه بأن لا شيء جديدٌ في فحوى هذه الجملة. من السهل أن نتفوه بشعارات سهلة لا تنم عن عمق. المجتمع موجود، والكل يعي بأن لا شيء يمكن أن يوجد خارج حدوده، فهو يتحكم بجميع حركاتنا وبأجنداتنا اليومية وبآمالنا. لقد سلبنا كل شيء وهو يحيا بالوكالة عنا، إذ أننا لم نعد مسكونين سوى بخرير الصوت الرهيب الذي هو صوت المجتمع.

لهذا السبب شعرت بأن الكتابة كانت هنا لتعبر عن تحدٍّ ما.

رحت أفكر شارداً في أن أحدهم خط هذه الجملة على الجدار الليلة. هناك أحد ما، وهو يعيش بيننا، ومن الممكن أن يكون أي واحد منا. فكرت أيضاً، في هذا الصباح، أن هذه الجملة، التي تنفي بهذا الشكل الواضح وجود ما يخنقنا، تدفعني إلى استرجاع معنى وحدتي: وهو أن شخصاً ما استيقظ في داخلي، وأن هذا النهوض بدوره أيقظ فيَّ قوىً لم أكن قد استخدمتها منذ زمن.

لاحظت وجود شكل مرسوم: رأس غريب أسفل الكتابة، شيء أشبه بفزاعة: صرصار تعاويذ أو ساحر على هيئة سمكة. بكل الأحوال،

Twitter: @ketab_n

بدا لي هذا الرأس وكأنه يلقي علي تعويذة من سحر الفودو الذي كنت أستشعرها في المكان، فارتدت بذلك الكتابة مظهر طقس مقلق.

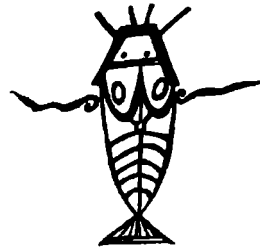

ما صعقني في الأمر هو التناسب ما بين الرأس والجملة. قد نجد المئات من الكتابات على جدران باريس، الكثير منها لا تحمل أي معنى بل تكتفي بتكرير شعارات ثورية أفرغت من جوهرها، كما لو أنه كان يكفي أن يتلفظ المرء بصيغة رنانة كي يقلب معنى العالم.

أما في زقاق الشيطان هذا فلقد أدركت في الحال أن لهذه الجملة معنى أبعد: لقد كانت علامة. والعلامة لا تحتاج إلى أن يتشاركها عدد كبير من الناس، لقد خُطّت لتحذر عدداً محدوداً من الناس. لتحذرهم من ماذا؟ بالطبع كنت أجهل من ماذا. لكنني كنت أرتجف من الغبطة فالنداء الذي تطلقه كان يملأ جسدي رغبة في تلبيته، كما لو أن جسدي لم يكن ينتظر سواه، أو كما لو كانت هناك قوة مجهولة تدفعه إلى هدف لم أكن أعرفه.

لن تصدقوني إن قلت لكم إن الأحداث التي قلبت هذه البلاد قد أججتها هذه التعويذة المرسومة على جدار زقاق الشيطان. وهذا صحيح بالتأكيد، فأول تجلٍّ من تجليات الثعالب الشاحبة قد ظهر هنا.

Twitter: @ketab_n

أؤكد على ذلك، لأن جميع الكتابات السردية التي وثقت مغامرتهم، والعديد من التحقيقات التي حاولت فهم سيرورة انتفاضتنا، تغفل جميعها أنها في الأصل بدأت من هنا. وذلك لسبب بسيط جداً وهو أنهم لم يقرؤوا هذه الجملة. أدعوكم إذاً أن تعتبروا ملاحظاتي، وما ترويه هذه الرواية كمساهمة في كتابة القصة الحقيقية للثعالب الشاحبة.

Twitter: @ketab_n

- 9 -

غودو

نسخت الرسم والكتابة على قصاصة من الورق، وألصقته على مرآة السيارة بحيث أقرأ دائماً عندما أستيقظ: «لا وجود لشيء اسمه مجتمع».

كنا تقريباً في منتصف شهر حزيران، نور الصيف يعبر المدينة كأنه نار هادئة، نور باسم يبث ضياءً يعيد الصفاء لأوراق الشجر، وللمقاعد الخشبية، وللحدائق ولوجوه الناس. كنت أعيش هنا، في السكينة التي أضحت بيئتي، نضارة زهر الوستاريا البنفسجي تحتضنني، وكانت الرغبة في معرفة هويات الفوضويين الذين يعبرون عن أفكارهم في زقاق الشيطان تسكنني.

عندما كنت أخرج من السيارة، كنت أنزع قصاصة الورق وأضعها في جيب بطانة معطفي بحيث تكون معي أينما تسكعت في شوارع باريس. كنت أود أن أتشرب روحها، عسى أن أفهم أخيراً لغزها لو ركزت جل تفكيري فيها.

أحياناً حين كنت أخرج في المساء، كنت أعرض الرسم على

Twitter: @ketab_n

أشخاص آخرين وأسأل عن معناه. في مقهى «البوتي أونيون»، اعتبر أحد الأشخاص أنه يشبه سمكة القط أو سمك السلور ذا الشارب. شخص آخر اعتبر أن هذا رأس ساحر كان قد رسم كرقية لدرء حدوث خطأ ما. أوليس وجود هذا العالم بحد ذاته خطيئة؟

أما أنا فقد كنت أنظر إليه بوصفه إلهاً. فما من شيء مألوف في شكله، بل لا بد من أن مصدره مكان آخر في العالم. قلت في نفسي إن هذا الكائن قد تخطى الحدود فبات لا ينتمي إلى عالم الأحياء ولا إلى عالم الأموات. إنه اللامنتمي، الذي ربما كان قد بعث خصوصاً ليبشر الجنس البشري بأن الانتماء لا وجود له.

تذكرت جملة قرأتها يوماً في كتاب عن التاوية وحفظتها غيباً، مثلها في ذلك مثل المئات من الجمل الأخرى والتي بدأت، في خضم الفراغ الذي أعيشه منذ انتقالي للعيش في السيارة، تطفو من جديد على سطح ذاكرتي. الجملة مفادها: «إن الشخص القادر على الاعتناء بنفسه لا يصادف في ترحاله لا وحيد قرن ولا نمر. وحين يخوض المعارك، لا يضطر إلى أن يناور كي لا يصاب بأذى، فلا وحيد القرن سيجد موضعاً يغرس فيه قرنه، ولا النمر سيجد مكاناً لمخالبه، ولا السيف سيجد نقطة لحده. لمَ؟ لأنه ليس في جسده من مكان للموت».

أيوجد موضع فينا لا يمكن للمجتمع أن ينسل منه إلى داخل ذواتنا؟ في بعض الأمسيات، وأنا في السيارة، في الوقت الذي يسحبني فيه الفاصل إلى دواماته، أو بعد عدة ساعات من السير، كنت أشعر بأنه لم يعد هنالك من شيء قادر على التأثير فيَّ. نعم، يكفينا أن نتوجه بحياتنا نحو الأمور التي توسع من أفقها، حتى نبدأ بالوجود بطريقة بديلة عن

Twitter: @ketab_n

المقاييس المعتادة. يمكن أن نعيش لحظات ليس للمجتمع من مكان له فيها. لكن هل يمكن لهذه اللحظات أن تمتد لحياة كاملة؟ كنت أظن ذلك في ذلك الوقت.

إذاً قد كنا في منتصف شهر حزيران. في ذلك المساء حدث شيء مهم. أذكر لو أسعفتني ذاكرتي، أني أشعلت الراديو في حدود الساعة العاشرة ليلاً لأقع صدفة على برنامج سياسي. كان رئيس تحرير مجلة أسبوعية يتشدق بعنف ضد الأشخاص الذين يتلقون مساعدات من الدولة. فعلى حد زعمه، هؤلاء الأشخاص العاطلون يكلفون الدولة مبالغ طائلة، وهم في طور تشكيل خطر على توازن البلد.

اقترح مكافحة العاطلين عن العمل وإجبارهم جميعاً على العمل. واستخدم في حديثه كلمة «إعادة تأهيل»، قال: «ليقوموا بأي عمل كان، المهم أن يعملوا». وأضاف: «فليكونوا عمال نظافة، لينظفوا براز الذين يعملون بجد، وعندها سيفهمون». لم أفهم ماذا يفترض بهم أن يفهموا، لكن الحضور في الاستوديو ضحك في هذه اللحظة. بعد قليل استفاض رئيس التحرير نفسه والذي كنت أظنه ذا ميول يسارية: «الشخص الذي لا يعمل هو شخص مسؤول عن ضعف قوتي الشرائية».

أطفأت الراديو، وأخذت تعبر مخيلتي صور لبيوت تحترق، لسيارات، لشوارع، كان نهر السين يفيض لهباً. عادة بعد أن نقوم بحبس أنفاسنا ونعد حتى السبعة تتخلص الأنفاس من الشيطان. إلا أنه في هذه الليلة لم أستطع أن أتعامى عن ما قاله رئيس التحرير. قلت لنفسي: أرأيت؟ المجتمع موجود وأنت لست جاهزاً بعد لأن تجد نقيضه.

Twitter: @ketab_n

لم أنم هذه الليلة، بل قضيتها خلف المقود أشرب الفودكا وأدخن السجائر. كان الجو يعبق بشيء من الرقة تكاد تكون مؤثرة. في الساعة الثالثة فجراً، بدت الأشجار عارية. هذا العري يدفع إلى ذرف الدموع كما يفعل الشخص الذي يقع في الحب. عري الأشجار يفتح ثغرة في العالم الذي يعتقد جنس البشر أنهم موجودون فيه، وبذلك تنكشف حماقاتهم.

فتحت الصندوق كي يضيء ضوءه الأزرق السيارة، فانعكست الإضاءة على السمكة الساحرة لتبدو كقمر.

في وقت ما بين الساعة الثالثة والرابعة فجراً أخرجت من العلبة مسرحية بيكيت وفتحتها كيفما اتفق، فوقعت على صفحة يقول فيها استراجون: «نجد دوماً شيئاً، آه ديدي، شيئاً يعطينا الانطباع بأننا موجودون». انفجرت ضاحكاً. وفلاديمير يجيبه: «نعم، نعم، فنحن سحرة.» انتابتني ضحكة مجنونة.

بالتأكيد دائماً ما يكون الأدب الراقي مسلياً، لكنني أعتقد هنا أني كنت قد انهرت كلياً. رفعت كأس الفودكا كنخب لبيكيت وللسحرة، فتيقنت من أن اسم غودو هو حقيقة دامغة. هاذان الاثنان اللذان ينتظران شيئاً ما كانا يدركان ماهية الأشياء على حقيقتها، كالأشجار والتعب والضعف، كانا يدركان معنى وجود الليل والأحلام والسراويل والجزر، وربما حتى وجود طريق. لذلك استوحيت من عنوان المسرحية الاسم الذي أطلقته على سمكتي: غودو. قلت لها: «باسم الفوضوية أعمدك»، رششتها بقليل من الفودكا وأضفت قائلاً: «أحبك يا غودو». ثم أعتقد أني غرقت في النوم.

Twitter: @ketab_n

- 10 -

جثة الإنسان هذا

استيقظت على صوت صراخ. فتحت باب السيارة. تفاجأت برماد السجائر مبعثراً على ثيابي، وبقميصي المبلل بالعرق، وبنطالي المبلل بالفودكا. خرجت مترنحاً على الرصيف. رأيت سيارة النفايات متوقفة في أعلى الشارع وسمعت شخصاً يصرخ بأعلى صوته، صراخ يشبه الكابوس.

سيارات شرطة وصوت صفارات حاد وأضواء تومض كحيوان مجنون. ركضت باتجاه الشاحنة حيث كان عمال النظافة يتراكضون في الاتجاهات كافّةً، ويمشون في وسط أكياس الزبالة الممزقة المتراكمة التي حولت الشارع إلى مكب زبالة نتن وإلى سيل من القمامة.

ظننت في البدء بأن إحدى الحاويات قد انقلبت، إلا أني اكتشفت أن حركة رجال الدفاع المدني تدل على أنهم يحاولون إخراج شيء ما من الشاحنة. فأحدهم كان قد صعد إلى داخل الحاوية شاقاً طريقه بين القمامة فيما كان زملاؤه يلقون بالنفايات في الشارع.

Twitter: @ketab_n

كانت الأضواء الحمراء المرافقة للصفارات وثياب عمال النظافة الخضراء المخططة بالفوسفوري تومض بعنف أذهلني وأضفى صبغة مرعبة على المشهد.

توقفت الأسطوانة التي تطحن القمامة في وسط الحاوية التي باتت فاغرة كفم حوت، مع بعض قطع البلاستيك التي ما زالت عالقة بين أسنانها. فهمت حينها بأن هنالك رجلاً عالقاً في الداخل.

كما قلت سابقاً، الغياب هو طبيعتي الثانية. لقد أمضيت عمري وأنا أتغيب، ففي باطن الغياب تشع حقيقة ترفضها رتابة الحياة اليومية لأنها قاسية. هذه الحقيقة لا تفارقنا سواءً أأعجبنا ذلك أم لا، فنحن هدف هذه الرتابة في كل لحظة. لقد ألزمت نفسي بأن أسكن الفراغ لأنني بذلك أصبح أكثر قرباً من ذلك الرعب، وهذا القرب بمعنى ما، يحميني.

لكن عندما ينزاح هذا الفراغ، يتجلى خلفه ما يخشاه المرء، ويمثل أمامه كما لو كان جالساً في الصفوف الأمامية.

فكرت: إنه مثل الفك.

ثم: العالم مليء بالكثير منه.

لمحت بين النفايات التي كانت تتقيؤها الشاحنة قدماً، أو بالأحرى قدماً مهشمة. في الحال، قام رجال الشرطة والدفاع المدني بإبعادنا عن المكان ونصبوا الحواجز، لينتهي بذلك المشهد.

انضممت إلى عمال النظافة الذين كانوا يقفون على جانب الجدار. كنت أعرف منهم شابين أسودين، «عيسى وكوريه»، حيث كنت أنتظرهما على

Twitter: @ketab_n

الرصيف أحياناً في الصباح لأدخن سيجارة معهما تحت شجرة الكرز، والتي أسميناها على سبيل المزاح «شجرة الكلمات». كانا جالسين هنا على الرصيف مع زملائهما يبكيان وهما يخفيان وجهيهما بأيديهما. شرحا لي أن مشرداً من الذين ينامون في حاويات القمامة قد قطعت أوصاله في الشاحنة. قال لي أحد العمال إن أعداداً متزايدة من المشردين أصبحوا يلجؤون إلى النوم في الحاويات. وأضاف: أغلب الأحيان نلقي نظرة على الحاوية قبل إفراغها في الشاحنة لكنهم أحياناً يغطون أنفسهم بالأكياس، خصوصاً في الشتاء، واليوم لم يتسنَّ للفريق الصباحي أن يقوم بالتحقق، فقام بجر الحاوية إلى الشاحنة، كما هي العادة، وحين انفتح غطاؤها ظهر رجل بين القمامة. لم يفد الصراخ بشيء، ولم يعد في الإمكان إنقاذه، فالحاويات من هذا النوع مخصصة لتفتيت القمامة. قام السائق بإيقاف الآلية إلا أن ذلك جاء متأخراً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 11 -

الهول

صورة القدم المقطوعة كانت تلاحقني لدرجة أني بالكاد كنت أغلق جفوني حتى تعود وتمثل أمام عينيَّ فأعود وأغلق عينيَّ. وصلت إلى حد عدم الرغبة في النوم، فهذا الرجل كان ينام على بعد بضعة أمتار مني ولم يبق منه شيء الآن. أميت هو؟ لا أعلم إن كان في وسعنا استخدام هذه الكلمة. الأجدر استخدام مفردات مثل ممزق أو مطحون أو محطم، فلقد عومل كنفاية. أنا مسكون بشيء آخر غير هذا الرجل. أنا مسكون بفكرة كيف يمكن أن يرمى الإنسان في القمامة أو في شاحنة النفايات وأن يتمازج مع البقايا. خرجت بنتيجة مفادها أن معالجة النفايات حلت محل الموت وأن إعادة التدوير أصبحت قدراً للأجساد.

ما لبثت هذه الفكرة أن أثارت فيَّ القرف، وكما لو أني كنت أتفلسف تساءلت كيف يمكن أن يتوقف الفكر؟ صحيح أني كنت مدمراً من هول ما رأيت لكن أفكاري لا تتوقف، لا بل أنها حولت هذا الرجل الذي ابتلعته شاحنة القمامة إلى حجة كي تسترسل، فالمرء لا يستطيع أن

Twitter: @ketab_n

يمنع نفسه من ملء الفراغ سريعاً، وأن يضع كلمات تسمي ما يلغي هذه الأفكار.

رحت أتمايل فاغراً فمي. كنت أفكر في أن المنطق يتحطم حين يصطدم مع حقيقة أن الشخص كان موجوداً ثم لم يبقَ منه شيء. أغلقت عينيَّ كي أتخيل هذا الرجل، إلا أنني لم أستطع رؤية شيء، ولا حتى طيف رجل، فقط قدم، جزء من قدم، الدم المتخثر كقطعة لحم مرمية، بأصابع بائسة وأظافر مقززة موجودة في أقصى أطراف الحيوان البشري.

بقيت طوال الليل خلف المقود من دون حراك، أشرب وأدخن. راح فكري يهوم خدراً في كابوس. من هو ذاك الذي يدفع بنفسه هكذا في الظلمة؟ لقد نسيت ما الذي يلهب مشاعري، فثقب كبير حل مكان السماء وأخذ يسحبني أنا وأفكاري لتتحطم في أعماقه. صحيح أن أفكاري صامتة إلا أن صرخة واحدة قادرة على تمزيق هذا الصمت. ما من فائدة من الصمت إن لم يستطع وضع حد للتفكير ولو لفترة وجيزة. هكذا: أنا لم أعد أفكر- أنا كائن هنا ولكني غير موجود... القلق يمحو الكلمات. فتضيع الفروقات بين الكلمات حتى تصبح مثل بلبلة الصراخ.

كررت هذه الجملة العبثية وأنا أبتسم ساخراً: «أنا كائن هنا لكني لست موجوداً». ذابت ضحكتي في دخان السيجارة المتصاعد. تبخرت أسناني، اختفت. ربما التخلي قد أخذ أخيراً مكاني وبدأ بدوره يتدحرج نحو أرض جرداء بين أكوام النفايات.

Twitter: @ketab_n

- 12 -

تقديم القرابين

قمت بتشييد مذبح للرجل الميت. هذا الصباح عند وصول عمال النظافة إلى الشارع خرجت من سيارتي، وتوجهت إلى ذلك الطرف من شارع «فيليه دو ليل ادم»، مقابل حاويات النفايات حيث توجد حديقة صغيرة يتجاوز عشبها السياج ليمتد إلى جذع شجرة الدلب. في ذلك الموضع قدمت القرابين مع عيسى وكوريه.

إنهما من دولة مالي. أسميتهما الأخوين دوغون، لكنهما ليسا من منطقة المنحدرات الصخرية، هما من قبيلة «سونينكه» ساكنو منطقة «كايس»، مثلهما في ذلك مثل أغلب المهاجرين الماليين في باريس. قلت لهما إنهما محظوظان كونهما توأم، فلم يولد أي منهما وحيداً.

صافحتهما وقدمت لهما سجائر دخناها بصمت.

كنت قد رافقت كلباً إلى الموت، لكني لم أكن أعرف ما الطريقة التي يجب اتباعها عندما يكون الأمر متعلقاً بجنازة إنسان لم يتبقَّ منه سوى قدم! في كل الحالات، الطقوس تفرض نفسها، فأرواحنا مسكونة

Twitter: @ketab_n

بالغبار والتراتيل، وتحاول عبر أدوات الطقوس، من خشب ونار ورماد، استحضار الأثر الضائع للدم المهدور ساعة الموت.

جلست القرفصاء ففعلا مثلي. قمت بحفر حفرة صغيرة، نصبت فيها خشبة وأحطتها بعساليج، فأخذ الاثنان وضعية الخشوع بعد أن وافقا على الطقس المختار. أخرج كل واحد منهما غرضاً لروح الميت ووضعه عند المذبح. وضع عيسى حصاة على حافة الحفرة في حين أن كوريه وضع قطعة من خيط أحمر بين العصا والأغصان. سكبت قليلاً من الفودكا وبقينا نحن الثلاثة في وضعية القرفصاء ساكنين، ننتظر دون أن نأتي بكلمة. فكرت في أننا كنا ثلاثة أشخاص في حالة الانتظار.

أشعلت سيجارة أخرى وتضرعت لاسم لا على التعيين، فقلت عفوياً: غودو. في مثل هكذا طقوس، أياً كان الاسم الذي نتلفظ به، فإن ما يخطر في بالنا يكون دوماً اسماً لإله. تقتضي الطقوس أيضاً أن نجز عنق الأضحية وأن ندير وجهها باتجاه روح تحمينا، وعندما يتوقف قلب الأضحية عن الخفقان تسيل بعض قطرات من دمها في الحفرة لتطفئ ظمأ الموتى. فتحضر أرواحهم إلى جوارنا. وإذا استغرقنا جيداً في التأمل، من الممكن أن يصل إلى مسامعنا الغناء الصامت الذي يحييها.

لا أعتقد، كما يقال، بأن الأموات يحبذون السرعة، بل أظن أنه لا بد من أن تكون الشعائر، في حضرة الموت، بطيئة. يتوجب علينا كي نحفظ ذكرى أمواتنا ولكي تحمينا أرواحهم، أن نرفع توسلاتنا بإيقاع يشبه الصلاة. حتى وإن لم نكن نعرف أي صلاة، على الأصوات المرفوعة أن تشبهها، أن تكون رقيقة ومضبوطة.

Twitter: @ketab_n

أحسست بأن عيسى كان يود أن يقول شيئاً عندما وضع يده على كتف أخيه وهو يبتسم:

- «لسنا بندابين ولكن يمكننا أن نلقي كلمة تأبين أليس كذلك؟».

أطفأ كوريه سيجارته وغطى وجهه بيديه، وراح ينطق بشيء يشبه الترانيم:

- «أوا دانو وانا بوي. بيغ يني ديو ويو. اوا بورو ون بورو تينيو بوي. اوا بورو بوج بورو تينيو بوي».

نظر إليَّ عيسى وهو يمج سيجارته، وترجم:

- «تعال أيها القناع الخشبي، رجل طيب قد مات. عيون القناع هي عيون الشمس، عيون القناع هي عيون النار».

تركنا الكلمات تنبعث في النسمات الصباحية، لنذهب بعد ذلك لنحتسي القهوة في «الشانتوفابل». الأخوان يقيمان في فرنسا منذ سنتين، ويسكنان في مركز إيواء «بارا» مع والدهما. عملهما كعمال نظافة كان يسمح لهما بإعالة عوائلهما في «كاييس». قال لي عيسى وهو يبتسم: «بتنظيف خراء الفرنسيين نحصّل ما نطعم به سكان مالي».

عندما سألاني عن عملي، قلت لهما إنني أبحث عن شخص. أخرجت رسمة غودو وسألتهما على سبيل المزاح إن كان قد تسنى لأحدهما مصادفته يوماً.

نفر في الحال عيسى وكوريه وانتصبا مشيرين بأصابعهما نحو غودو:

- «أبعده عن نظرنا!».

Twitter: @ketab_n

كانت ردة فعلهما توحي كما لو أنهما رأيا الشيطان.

لقد حدث أن شاهدا غودو في مكان ما في قريتهما، ربما ضمن احتفالية، لم يعودا يتذكران، لكن هذا الكائن كان يمثل بالنسبة إليهما الجانب المظلم، الجانب الآخر، الذي أغرق الكون بضلاله، الذي سرق من دون شك العلامات التي تنقص هذا العالم. لا يعرفان ما اسمه لكنهما ضحكا حين علما بأني أسميته غودو.

Twitter: @ketab_n

- 13 -

الحجز الاحترازي

يوم 21 حزيران، صادفت فيراندي وأنا خارج من مكتبة «مارغريت دوراس» التي كنت أقضي فيها كل يوم فترة ما بعد الظهر. كان يجلس على الرصيف مقابل صالة «لا فليش دور»، في شارع «بانيوليه». للوهلة الأولى لم أعرفه، كان يضع نظارات شمسية سوداء وكان قد حلق شعره على طريقة هنود الإكواريس الحمر، كان يشبه الممثل «روبرت دي نيرو» في فيلم «سائق التاكسي».

وجهه النحيل تبدو عليه علامات الغضب والاستياء. كان يلتهم بيضاً بعصبية حيوان مفترس. لم أر في حياتي شخصاً يأكل بمثل هذه الطريقة، كالأفعى التي تبتلع فريستها، كان يحشر البيضة المسلوقة دون تقشير في فمه ليطحنها بأسنانه مكشراً ويبصق القشور حوله على الرصيف.

لاحظت وأنا أقطع الشارع متوجهاً نحوه أنه يحمل مدية. انتصب واقفاً لدى اقترابي منه ورفعها بوجهي:

Twitter: @ketab_n

- «لقد خرجت لتوي من السجن، كل من يقترب مني هو ميت لا محالة».

* «أتقصدني بكلامك؟».

حليق الشعر، وجهه يحمل علامات التكلف والتصنع، كان مظهره أشبه بعسكري مرتزق. حين تعرَّف إليَّ انفجر ضاحكاً وأخفى سكينه. دخلنا إلى «الفليش دور» حيث كان لديه موعد مع صديق له اسمه «ميشنياك»، مغنٍّ في فرقة «بروغرام»، كان يتدرب هنا استعداداً لحفلة هذا المساء.

الصالة الفارغة حينها كان يسودها جو من الاضطراب، هذا الاضطراب كان في الآن ذاته بارداً وشديد الهرج، ذا عنف صامت وفاتن في آن معاً. على خشبة المسرح المواجهة للبار، كان هنالك رجلان يعزفان في الظلمة ويصدران أصواتاً معدنية رخيمة. الصوت الأبيض يأتي من الاحتجاز، تعرفت فيه فوراً إلى الإفراط الذي يشعل النار في داخلي.

عازف غيتار يغطي وجهه بنظارات سوداء كان يقف على حافة الخشبة دون حراك، مستغرقاً تماماً بالنوتة. إلى جانبه كان يتحرك مغنٍّ طويل القامة نحيل، حركاته توحي بأنه مصارع في حلبة. كان يغني، على شكل شعارات، أناشيد ثورية ذكرتني بالشوارع المحترقة التي كنت أغرق فيها بأحلامي.

ذلك أنه، ومنذ موت الرجل المشرد، كانت المدينة تبدو لي وكأنها تحترق بنار غير مرئية، وأن عبر هذا اللهيب الذي يحيل الأبنية رماداً،

Twitter: @ketab_n

والسيارات فحماً، والإسفلت صهيراً، انفتحت تحت أقدامي الهوة التي كان المجتمع يخفيها بعناية فائقة. هذه الهوة، كنت أنا في انتظارها.

حيا المغني فيراندي برفع قبضته. توجهنا إلى صدر الصالة، أزاح فيراندي الستائر البلاستيكية السوداء الكبيرة التي تفصل بين الصالة والشرفة المسيجة بالزجاج، والتي تطل على خطوط حديدية مهجورة.

أبهرني ضوء الشمس، فطلبت من فيراندي أن يعطيني نظاراته السوداء. كانت عينه متورمة، فضحك ضحكة صفراء. لم يفتأ الصوت الخارج من خلف الستارة يزداد قوة كما لو أن مضخمات الصوت المستخدمة لا تقف عند حد معين. من خلال هذه الأصوات كان يصلنا غناء ميشناك الذي يغني غضبه منشداً:

«في عالم تحكمه الجريمة
إذا أردت أن يكون لي فيه مكان في الوقت الحالي
عليَّ أن أصبح مجرماً
أن أشارك في الفساد
وفي كل الفوضى».

بدأ فيراندي يخرج عن طوره فقد كانت أعصابه متوترة إذ لم يكن قد نام منذ أربعة أيام. طلب زجاجة فودكا، أما أنا فقد فتحت النافذة لأدخن. أخرج فيراندي من جيبه قطعة ورق قام بفتحها ليضع على الطاولة القليل من البودرة المخدرة ويستنشقها. ما إن وصلت الفودكا حتى اجترع ثلاثة كؤوس دفعة واحدة: «كل كؤوس الشيطان غير قادرة على أن تروي ظمئي».

في حين أنني قضيت طوال فترة ما بعد الظهيرة أقوم بقراءات أمدتني

Twitter: @ketab_n

بنورها، كان فيراندي قد خرج للتو من السجن الاحتياطي بعد أن أمضى فيه 48 ساعة. لقد كان مهتاجاً وغير قادر على الاستقرار في مكان واحد، فالتقط زجاجة الفودكا وراح يتمشى في كل الاتجاهات وهو يركل الكراسي.

- «أتعرف ما معنى الحجز الاحتياطي؟ ذلك يعني أن تتعفن في مراحيض الدولة، هذا يعني أنهم حشروا أنفي في مؤخرة الجمهورية لمدة 48 ساعة. أتسمع ما يقوله ميشناك؟ «الجحيم الفاتر»... معه حق، فقد ألصقونا جميعاً بهذا الجحيم الفاتر كالذباب الملتصق بشبكة عنكبوت. لقد جردونا من أسلحتنا ويقومون الآن باستخدامها بشكل أفضل. لقد أصبحت الانتفاضة عارية، وباتوا هم من يرفضون. لا أريد سماع ترهات حول قدرية التغيير الجذري، فلا أحد ولا حتى أكثر الثوريين شراسة يستطيع أن يذهب إلى الحد الذي وصلته الجمهورية الفرنسية».

كان فيراندي في طريق عودته إلى المنزل ليلاً بعد أن أمضى سهرة عند أصدقائه شرب خلالها حتى الثمالة، أشار لسائق تكسي، متوقف عند إشارة تقاطع «ار اي ميتيه». التكسي فارغ، لكن رفض السائق أن يدعه يصعد، فاستشاط فيراندي غضباً وحاول أن يفتح الباب. ولما لم ينجح استشاط غضباً وأخذ يركل باب السيارة. خرج السائق كالثور من السيارة وتعارك الاثنان لحين وصول الشرطة التي فرقتهما ودفعت بفيراندي إلى الحائط، ويداه خلف ظهره، لتقوم بتكبيله واقتياده إلى قسم الشرطة.

قال فيراندي إن ما يحدث في الزنزانات المخصصة للسكارى في

Twitter: @ketab_n

الدولة البوليسية الفرنسية يمثل الوجه المظلم والشرير للجمهورية. لقد عنفوني بالزنزانة كما عنفوا العرب في عام 1961، وكما يعنفون الآن المهاجرين الأفارقة غير الشرعيين على مدار الساعة.

على الرغم من أن فيراندي كان يترنح وفي حال مخيف من الثمالة، إلا أن كلامه كان مفهوماً وواضحاً. لكن صوته لم يكن هو نفسه الذي سمعته عندما كنا في زوربا، بل كان أشد قتامة وخشونة، كما لو أن سكيناً كان يصرصر من داخل حنجرته.

كان فيراندي يؤمن، على غرار أصدقائه زويه وبيزون، بالسياسة، أما الآن فلم يعد يؤمن. الإيمان بالسياسة يعني، ولو بشكل مبهم، أنه ليس مقدراً للشر بأن تكون له الكلمة الأخيرة في الحياة وأن ينتصر. كان رأسه المحلوق يعبر عن حزن رجل مفجوع جاهز لأن يعلن الحرب. فهمت كيف أنه اختبر في سجنه حالة لا تتمايز فيها السيطرة والتحكم عن انتهاك الحقوق.

أعلمني فيراندي بأن رجال الشرطة قد عروه من ثيابه ورموه في زنزانة تحت الأرض، وانهالوا عليه ضرباً بعصي بلاستيكية لا تترك أثراً على الجسم، قائلين له: «أيها البرجوازي الباريسي الوسخ، سنجعلك تأكل خراءك الفني». قال بما معناه: لقد كنت في حفرة جرذان الجمهورية، حيث السياسة تقتضي كتم الصراخ. في لحظة ما، أتوا ليأخذوا عينة من حمضي النووي، وعندما رفضت وضع العود القطني في فمي ورميته في وجوههم، انقضوا عليَّ وشدوني. اقتلعوا شعري صارخين بأنه أصبح لي ملف الآن لدى الشرطة وبأني أضحيت معروفاً في الأجهزة الأمنية كافّةً.

Twitter: @ketab_n

في الزنزانة التي كنت أتشارك فيها مع ثلاثة أشخاص سود، حبسوا لبيعهم دون ترخيص أشياء لا أعرف ما هي. كانوا يمنعوننا من النوم عبر تشغيل موسيقا أوكورديون تصلنا عبر مكبرات للصوت. أيوجد أسوأ من موسيقا كهذه؟ احتجت إلى أن أذهب ليلاً إلى الحمام كون مرحاض الزنزانة كان مسدوداً. حين بدأت التبرز، انتبهت للكاميرا التي تقوم بتصويري، فدخلوا عليَّ كالمجانين وثبتوني أرضاً. لقد صوروا لي مؤخرتي بكاميرتهم هذه. كنت أسمعهم يضحكون وهم يشتمونني: «أترى؟ نحن أيضاً لدينا حس فني، ونقوم الآن بعمل فني عبر تصوير مؤخرتك عوضاً عن وجهك، فأنت لست سوى فتحة شرج».

كان فيراندي على وشك الانهيار فقد شرب زجاجة الفودكا بأكملها. صوته الآن يشبه الصدى: أكثر ما في الأمر غرابة هو أن ما صوروه كان يشبه عين كاميرا المراقبة التي كنت ألتقط بها الصور. اللقطة القريبة لفتحة شرجي كانت مطابقة تماماً للقطات المأخوذة لكاميرات المراقبة التي كنت أشتغل عليها في أعمالي الفنية. هل تعي ما يمثله هذا الاكتشاف؟ هذا يعني بأن عين الرقيب هي شرج! هم يغتصبوننا حين يراقبوننا: الرقابة لها ماهية شرجية.

عجزت عن كتم ضحكتي المجنونة في حين أن فيراندي بقي صامتاً دون أن يضحك. ازداد انزعاجي وانا أستمع إلى فيراندي، إذ كنت لم أتوقف عن شرب النبيذ لدرجة أني أصبت بالشمالة. دمي بارد، ولكن يحدث أن تستحيل هذه البرودة إلى رماد، كما لو أني كنت أنطفئ، عندها يسيطر عليَّ الخمول الذي يحرقني، وهنا تكمن المفارقة.

Twitter: @ketab_n

- 14 -

العزلة سياسة

دخل ميشنياك فجأة وأخذ فيراندي لينتحي به جانباً. بقيت على الطاولة وحيداً أتأمل أبراج «سان بليز» التي كانت نوافذها مضاءة ليلاً. أطل القمر ببياضه المغبر معلناً انسحاب السماء نحو الظلمة. السكك الحديدية دخلت في نفق، بدا من خلال ثمالتي مروعاً بنفس القدر الذي وصف به فيراندي الحفرة. السكك الحديدية تتجه نحو الشرق، فقلت في نفسي إنه نفسه الطريق نحو الكوابيس. فالنفق يبتلع هذه القطارات الشبح ليعود ويلفظها إما في «اللورين» أو «الألزاس»، أو حتى أبعد من ضفاف نهر «الراين»، نحو منطقة «البوميراني»، أو إلى «بولونيا» نهاية رحلة القطارات.

طلبت زجاجة نبيذ أخرى. انتابني حدس وأنا أتمعن بالنفق بأنه ينفتح على عالم الأموات، وبأننا موجودون هنا كي يضحى بنا، وبأننا لسنا سوى سماد يرش على الأرض لتنمو فوقه شواهد قبورنا، حالنا في ذلك مثل حال الرجل الذي طحنته شاحنة القمامة. أخذت أتمايل وأنا أستمع

Twitter: @ketab_n

إلى أطياف الموتى، قلت لنفسي: هنا، في قلب باريس يتكلم الأموات، وأنفاسهم تجوب الأنفاق. ألا يمر النفق أسفل مقبرة «بير لاشيز»؟ فيراندي على حق: إن مؤخرة الجمهورية تبتلع الأعين التي تكشفها.

بحسب فيراندي، إننا نعيش في عصر يشهد حلول الشرطة مكان السياسة. وهذا تبدل تاريخي كونه يؤسس لإذلالنا. كلمة «شرطة»، بالنسبة إليه، لا تشمل فقط قوات حفظ النظام، بل أيضاً كل شيء فينا يقبل بأن يُسحق، فاستعبادنا سيصبح قريباً بلا حدود بما أن الخطاب السياسي قد اندثر وبقيت الرقابة وحدها حية.

كان يكرر وهو يضرب بقبضته على الطاولة: «لم يعد لدينا أي وجود سياسي». ويقول إن الأمل الوحيد المتبقي معقود على أولئك الصامتين الذين لا منابر لهم لأنهم استبعدوا عنها. وهم من بلا مأوى، أو بلا عمل، أو بلا إقامة، كل من يحمل في توصيف حالته كلمة «بلا». صمتهم مقدس، لأنه هو ما تبقى. عندما تتم التضحية هناك دائماً ما يتبقى. هذا ما كان يقوله فيراندي: ستعود الحياة لتدب من جديد في السياسة، يوم يجد هؤلاء الذين بقوا على هامش النظام الاقتصادي منابر لهم.

لم تمنع الثمالة فيراندي من أن يعبر عما يجول في فكره، إلا أنها جعلته يرتمي بجسده على الكراسي، لينهار كلياً في النهاية.

كانت الأرض مليئة بالزجاج المكسور وبرك من النبيذ الأحمر المسكوب. نهضت كي أساعده إلا أني فقدت توازني أنا الآخر ووقعت ممدداً في إحدى برك النبيذ.

هناك بيننا من يتساءل عن معنى وجوده على الأرض، وإن كان

Twitter: @ketab_n

الوجود مهزلة ليس إلا. شعرت هذه الليلة بأنه كان في وسعي أن أرمي نفسي من أعلى برج أو أن أقفز في مستنقع من الحمى، فأنا كلي كنت مهزلة.

أحسست فجأة بالسعادة وأنا أقف وبنطالي مبلل بالنبيذ. الليل قد حل وبدت لي جدية الإنسان كصورة مبهمة في قعر الظلمات. انفجرت ضاحكاً. الطين في السماء كان أحمر وأسود. صعدت على حافة النافذة لأرى السكك الحديدية تفتح ذراعيها ترحيباً برغباتي في عالم الظلمات. أنا متأكد من أنني قد قفزت تلك الليلة، متأكد من أنني عبرت، ولو لبضع لحظات، نحو الجانب الآخر، من أنني لحقت بكلب «التوريل» وأحسست بنفسه الرطب. أكدت لي ذلك همسة أتتني من المنحدرات، وكمية من التفاصيل كانت ترنم غرابة الأمر في رأسي.

عندما عدت إلى وعيي، وجدت نفسي جالساً ورجل غريب يهز أكتافي وامرأة تقدم لي كوباً من الماء، كان شريط حمالة صدرها يتجاوز ثوبها. مددت يدي نحوها، فابتعدت بنفور.

كان فيراندي قد رحل. وشاهدت عبر زجاج النوافذ أضواء أبراج «سان بليز» تتلألأ كالنجوم. أنهيت زجاجة الفودكا ثم نهضت مترنحاً. دقات قلبي تتسارع. دوامات من ضوضاء تهدر في أذني. الجلبة فراغ لكن على طريقتها. يهتاج داخلها العدم بحماسة يخفيها عن النهارات الهادئة. خطاب فيراندي المخيف كان قد أثر في أعصابي. وهذا، دون شك، كان أحد الأسباب التي دفعتني إلى أن ألتحق بالثعالب الشاحبة.

أزحت الستارة وعدت إلى الصالة التي كانت تغلي من شدة الحرارة وفيها حشد كبير من الناس. ومض من الأضواء يبعث على الخدر كان

Twitter: @ketab_n

يخرق الظلام. أنشوطة السطوة هذه مدتني ببطء بأحاسيس. فالأجساد التي حولي كانت تهز برأسها لدرجة أن وجوهها اختفت لتستحيل اهتزازاً، أما صوت ميشنياك فكان يضبط إيقاع غشيانها:

- «قل شيئاً ما! الروبوت هو غاية العقل الغربي

أيها التابع قل شيئاً ما! الجريمة الشاملة هي الهدف غير المعلن للبشرية

أيها التابع قل شيئاً ما! ماتت السكينة وأفسدنا الضوضاء».

رحت أبحث عن فيراندي، فوصلت إلى البار وطلبت زجاجة بيرة. أرشدني أحدهم إلى الحمامات ورحت أشق طريقي بين جموع الأجساد. المشاركة في هياج مماثل هو ضرب من الجنون، لكني كنت أجد في ذلك لذة مبهمة، فشيء ما يجوب في هذا الجو وعليَّ أن أكتشفه. الفوضى مسكرة والانزلاق فيها لا تحده موانع. لا شيء في الجلبة يبعث على الضياع، إنما خوفنا من السقوط هو الذي يولد المخاوف فينا. من الأسهل بالطبع أن نتجنب هذا الدوار لكني كنت منجذباً إلى الفوضى، فقد كانت ترشدني إلى طريق معرفة غودو.

في الحمامات كان الشباب يتدافعون حول المغاسل. كانت نظراتهم هامدة وغير مكترثة كما لو أنهم كانوا أشخاصاً يتم التحكم بهم عن بعد. كانت الموسيقا تصل إلى المكان أشبه بزمجرة في مغارة. الكل كان ينظر في المرآة بانتظار أن يعود إلى حالته الطبيعية. أحد الأشخاص كان واقفاً هنا، بلا حراك، بشعره الأشعث، يلبس معطفاً طويلاً، وكان يبدو عليه أنه أمضى الليل بطوله في الغابة. هذا الشخص هو أنا.

Twitter: @ketab_n

- 15 -

كل شيء في نطاق المغامرات

أضعت بوصلتي؟ فلنقل إني مررت بفترة صعبة، كنت أعيش مساءاتها وصباحاتها، والليالي والأيام، وكل لحظة فيها حتى العظم. كنت أتمدد دون أن آتي بحركة في السيارة المركونة على جانب هذا الشارع الغارق بأشعة الشمس، أو أقضي وقتي في أحد البارات أشرب الكحول. أما من لقاءات؟ بلى، بضعة لقاءات، فأنا مثل كل الناس أريد أن أشعر بأني موجود. أن الحياة التي يروجون لها منذ كنت صغيراً، والتي تتلخص بالانصياع إلى الأوامر لا تناسبني. في الحقيقة، لا شيء يشعرني بالرضى. وبالمناسبة، ليس «للحقيقة» سوى وجه واحد: وجه يقوم على إنكار كامل لكل ما يقولبها.

لم تنشر الصحف خبراً عن موت المشرد، إلا أن عذابه لم يغب عن بالي، كما كان يلاحقني كل منتحر. قرأت مرة في صحيفة «ليبراسيون» بأن هنالك ثلاثين حالة انتحار في فرنسا يومياً، أي تسعمئة حالة شهرياً، وأكثر من عشرة آلاف حالة سنوياً. كنت أتلو هذه الأرقام على نفسي

Twitter: @ketab_n

كما لو كنت أقوم بحساب أعداد ضحايا مجزرة. أشار مقال «ليبراسيون» إلى أن الإحصاءات المتعلقة بمحاولات الانتحار تبقى سرية في فرنسا، وإلى أن الانتحار يشكل السبب الرئيس للموت لدى الشريحة العمرية ما بين 35 و49 عاماً، وأن عدد المنتحرين يفوق بنسبة الضعفين من يموتون نتيجة حوادث السير، وأن محاولات الانتحار تصل إلى مئتي ألف في العام.

ما تحمله ذواتنا من نزعة نحو العزلة يتجاوز حدود المنطق، ولا تتوقف هذه النزعة عن دفعنا نحو بساطة تفسد الراحة. في هذا المكان هنا حيث أكتب هذا النص لا يوجد أحد. لكن على الرغم من ذلك، كلهم موجودون معي. من هم «كلهم»: الأموات؟ في كل لحظة تجتمع أصوات في الفراغ بحيث يشعر كل شخص بأنها ذاكرته الشخصية، إلا أنها في الحقيقة ذاكرة لا شخصية. هل لمثل هذه الذاكرة وجود؟ أحسست بأنني أحترق من أجل لا شيء، وبأن اللهيب المتصاعد كان يعرض أمامي مقاطع من حياة قديمة، من حيوات عاشها آخرون في أزمنة أخرى، حيوات كانت تخرج نحوي من الأقبية، كما لو أن شوارع باريس قد انقلبت وأظهرت من تحت الأرصفة الأرض التي كانت تخفيها، الأرض المسحورة التي نسينا، في فرنسا، أنها ملعونة.

كنت أعيش مع أصوات، انبهارات، عطش، نقص ما. شعرت فجأة بالجوع وأنا أغلق باب السيارة. شعرت بأني سأسقط من أعلى المنحدر. تمشيت بتثاقل نحو أسفل الشارع ودخلت مطبخ «سان ميرفاي» المتخصص بالأكل الصيني حيث يقدم لي السيد «كريم» وجباتي. كنت

Twitter: @ketab_n

قد عقدت اتفاقاً معه: مقابل كل وجبة يومية محضرة على البخار، كنت أعطي دروساً لابنته «لولي» التي كانت تستعد لتقديم الامتحان الشفهي في البكالوريا الفرنسية. وكان عليها أن تحضّر كتاب «*أحلام متنزه وحيد*» لجان جاك روسو، الكتاب الذي انكببت على قراءته بشغف.

كانوا قد قطعوا عني مساعدات البطالة لأنني لم أذهب إلى المقابلات الأخيرة التي استدعوني إليها. كان عليَّ أن أظهر لهم حسن نيتي، لكن يبدو من دون شك أنني لا أملك أي حسن نية، فتركت بذلك نفسي تنزلق في تيه من الصعب تبريره.

لم يبقَ لي سوى القليل من النقود تكفيني حتى آخر الصيف. تحررت من عادة الاستهلاك منذ أن أقمت في السيارة. فباستثناء بضعة فناجين قهوة أو كؤوس من النبيذ أشربها مساء في بارات الدائرة العشرين، لم أكن أشتري شيئاً. كنت ألبس نفس الثياب يومياً والتي هي عبارة عن معطف وقميص وحذاء رياضي. كنت أقرأ في المكتبة العامة وأستلقي في الحدائق: وكانت هذه آخر ما تبقى من النشاطات المجانية في المدينة.

أنا مؤرق بشيء، لا أعرف اسمه، شيء سيأتي من بعيد، شيء يمكنه الظهور في أية لحظة: يمكن له أن ينقطع أو أن يختفي ليعود بعد ذلك فجأة، لذلك يكفي أن ينتظر المرء وأن يكون جاهزاً عندما تظهر العلامات. منذ الأزل الشيء الذي يعاود الظهور على السطح يعيد إلى الذاكرة مقاطع من قصة منسية. كنت أحاول أن أبقى وحيداً. وأن أكرس نفسي لهذه الومضات التي، عندما أكون وحيداً، تفتح على الزمن، عندها اكتشفت بأن العزلة سياسة. هل الأشخاص الذين كنت ألتقيهم يساعدون على

Twitter: @ketab_n

فك رموز لغز ما؟ كل ما جرى كانت تحكمه سببية صارمة كتلك التي نستشفها في البرامج الوثائقية، كما لو أن فيراندي والمشرد والتوأم من مالي أو حتى المنتحرين كان لديهم قاسم مشترك، ولم يبق سوى أن نكتب نصاً عنهم.

Twitter: @ketab_n

- 16 -

غودو يعود من جديد

مضى شهر تموز بهدوء. كنت أجول على شرفات المقاهي بحثاً عن ميريام، الأمر الذي أتاح لي التعرف على صبايا شابات، بفضلهن عشت فترات لطيفة في أوقات بعد الظهر، ولياليَ غريبة، وصباحات مؤلمة. جربت مع تلك الفتيات كل الوضعيات الجنسية. أحياناً كنت أعاني لأحصل على مبتغاي، وأحياناً أخرى كنت أفشل، في بعض الأوقات كنا نضطر إلى ممارسة الجنس على مدخل بيت أو مرأب سيارات. عشت أوقاتاً أحسست فيها بأن الحظ إلى جانبي، وأوقاتاً من سعادة قصيرة، تبعها اكتئاب طويل.

كنت مرة، في مطعم «لي كبي» في بولفار «مينيلمونتان»، شاهداً على حادثة مدهشة، حيث اقتحم خمسة أو ستة أشخاص مقنعين الصالة. انقضوا على الطاولات، انتزعوا الأطباق من بين أيدي الزبائن، غير آبهين بصراخهم، ليغنموا قطع اللحم و«الغراتان دوفينيوا» والشوكولاته المخفوقة وزجاجات النبيذ.

Twitter: @ketab_n

لن أروي كل ما حدث معي في تلك الفترة. على الرغم من أن غيري كان من الممكن أن يكتب هذه الأحداث في رواية، أما أنا فلا. فهذا النص، كما قلت سابقاً، لا يهدف إلا إلى سرد قصة الثعالب الشاحبة.

لنختصر إذاً.

ذات مساء، وأنا عائد من افتتاح معرض دعاني إليه فيراندي، كان المعرض في صالة من الصالات الموجودة في شارع «اوبركانف»، حيث كان يعرض أعماله إلى جانب فنانين آخرين، منهم صديقته زويه التي أخبرتني بأن ميريام والبيزون غادرا باريس كونهما انضما إلى «مجموعة تارناك».

الأعمال الفنية المعروضة تلتقي كلها حول ثيمة النفايات. الصور الفوتوغرافية التي التقطتها زويه أعطت تصوراً هذيانياً عن أكوام القمامة، كانت القمامة تغزو الفضاءات الحيوية، حتى السماء بدت مدفونة تحت أكوام الزبالة التي تقضم الأفق. وهذا يلخص كوكب الأرض بمشهد واحد: مشهد مكب للنفايات.

ألا تشكّل هذه الأعمال الفنية، وهذا المعرض الفني وعالم الفن المعاصر نفسه، جزءاً من مكب النفايات العام؟ النص الذي كتبته زويه عن هذا الموضوع كان يدعو بشكل مبهم إلى الأخذ بهذا الرأي، الأمر الذي أثار غضب فيراندي وبالنتيجة أفسد احتجاجه جو الأمسية.

خرجت من المعرض. وعندما وقعت عيني على بعض النجوم واللون الأخضر، بدأت أتنفس الصعداء.

ها أنا أتجاوز صعوداً شارع «اوبركانف» نحو التقاطع مع شارع «سان

Twitter: @ketab_n

مور». في هذا المكان تحديداً، الذي كان يسمى في القرن الثامن عشر «لا هوت بورن»، وحيث يقع الآن مطعم ومقهى «شي جوستين»، حصلت مع جان جاك روسو حادثته الشهيرة يوم 24 أكتوبر 1776.

منذ أن بدأت قراءة نص «أحلام متنزه وحيد» مع «الولي» وهذه الحادثة تلاحقني. لا أتوقف عن قراءتها، فقد كنت أشعر أن فيها مفتاح مغامراتي.

في عصر ذات يوم، كان جان جاك روسو يتمشى بين كروم العنب ومروج قرية «مينيلمونتان» وصولاً إلى «شارون»، أي المنطقة التي تشكل في الوقت الحاضر شوارع الدائرة العشرين. كنت قد قمت بأبحاث في مكتبة «مارغريت دوراس» لأتحرى عن المسار الذي اتبعه، فوجدت أنه في طريق عودته، وقبل أن ينحدر نزولاً باتجاه التلة كان روسو يجتاز شارع الصين ويمر بحذاء مكان سيارتي حالياً.

في حوالي الساعة السادسة مساء بعد أن اجتاز حاجز «ميليمونتان»، دخل روسو باريس من نفس المكان الذي أقف فيه الآن أمام «شيه جوستين». بدأ الأشخاص الذين يسيرون أمامه يتنحون عن الطريق فجأة. وهو يصف ما حصل في كتابه فيقول: «رأيت كلباً دانماركياً ضخماً يتجه راكضاً نحوي، ولما كان يجري بسرعة كبيرة أمام إحدى العربات، لم يتسن له الوقت ليتحاشاني عندما لحظ وجودي في طريقه».

في تلك اللحظة، خامرت فجأة روسو فكرة جعلت من هذا المشهد موقفاً هزلياً بشكل ما. فهو كي يتحاشى الكلب ظنّ بأن عليه أن يقفز في الهواء ليسمح له بالمرور من تحته. وبالطبع لم يسمح له الوقت بأن يقوم

Twitter: @ketab_n

بهذا الاستعراض الخيالي، فاصطدم الكلب بروسو ليقع الأخير على رأسه ويرتطم فكه بالأرض، غائباً عن الوعي.

كان الليل قد حل تقريباً حين استعاد وعيه. أجلسوه وكان وجهه مدمى وأسنانه مهشمة، إلا أن نشوة اعترته وهو يقول: «في تلك اللحظة أحسست بأني ولدت من جديد، وبدا الأمر لي كما لو كنت أملأ بوجودي الخفيف كل الأشياء التي أراها من حولي».

كان فمه وأنفه ينزفان كساقية ماء وهو يجتاز باريس عائداً إلى بيته، صرخت زوجته رعباً حين فتحت له الباب.

خيط الدم هذا الذي عَبر المدينة كان مألوفاً بالنسبة إليَّ. كان يذكرني بشيء مدفون في أعماق الذاكرة. شيء لم يكن له وجود بعد، حين اختبره روسو، من دون شك، شيء لم يكن له أي سيطرة عليه، كانت مهمته بث رسالة نحو المستقبل.

شرحت ذلك للولي: ما اصطدم به روسو في هذه الحادثة لم يكن الكلب وحده بل بالوجود بذاته. هو لم يقم بالقفز من فوق الكلب، بل إلى داخل الوجود. إن اللقاء مع الوجود شبيه بالارتطام بحيوان يجري بكل سرعة، فعندما يحل عليك فإنه لا يعيرك أي انتباه بل يجرفك معه في انطلاقته فتبدأ بالعيش الحقيقي.

تبسمت حين فكرت في أنه ربما كل ما يحصل لي مصدره هذا الحادث، كل ما كنت أعيشه منذ أشهر ربما كان محاولة مني لاستمرار الحالة التي اختبرها روسو منذ ثلاثة قرون. الكل مدعو إلى أن يجرب في حياته القفز داخل الوجود. وهذا يتم أحياناً عبر أشياء جد متواضعة كضحكة مفاجئة

Twitter: @ketab_n

أو حالة قلق أو تفاوت في الغبطة ينتاب الشخص منا. كل هذه الأشياء تستطيع أن تجعله جاهزاً لتلقي دفق الوجود هذا.

هل يمكن لهذه التجارب أن تعبُر الزمن، وأن تنتقل من خلال صحوة الذاكرة؟ هل بإمكاننا أن نرث نشوة؟ بدأت السماء تمطر فبدأت أضحك لوحدي وأنا أدخن سيجارة على الرصيف أمام «شيه جوستين»، أردد هذه الكلمات: وراثة نشوة. أنا الذي لا أملك شيئاً يبدو أنه إرثي الوحيد. وإذا فكرنا ملياً، أيوجد شيء أجمل من ذلك؟

باختصار، بدأت السماء تمطر وملأت العواصف الأرصفة. بدت المدينة عارية فجأة، وحدها الأشجار حافظت على النضارة التي تبقيها بمنأى عن التهكم. مشيت في شارع «مينيلمونتان» تحت المطر كما لو أنه تاج يتوج رأسي. في ذلك المكان من شارع «سوربيه»، في الحديقة العامة الموجودة بعد البارات، عثرت على كتابة جديدة بأحرف حمراء، يعلوها رسم لرأس السمكة العزيز عليَّ، تقول:

ما يحصل في فرنسا جريمة

انتابتني غبطة جنونية. أبرقت السماء وضربت الصاعقة الأرض بالقرب مني، مضيئة الحديقة بنورٍ باهرٍ عرى شجر السرو، فأصبح كل شيء أبيض صاف بلون القمر. رحت أصرخ من السعادة وركضت باتجاه الحديقة، نحو تمثال آلهة يخترق أوراق الشجر. تسلقت السياج والمطر يضيء ضحكتي، غودو ما زال حياً.

لماذا صعقتني هذه الكتابة إلى هذا الحد؟ الكثير من الناس، دون

Twitter: @ketab_n

شك، مروا من أمامها دون أن تؤثر فيهم. أما أنا فكنت أتلقاها كنبوءة، كتأكيد لا محدود، كاف لأن يعيد للمستقبل ألقه: كل تحد يجب أن يقابل بانتفاضة.

أصبحت أحس الآن بخفة مجنونة. فكرت، وأنا أضغط بجسدي على تمثال الآلهة منتشيا من الامتنان ورأسي يقطر مطراً، في أن غودو قد عاد وأنه خط هذه الأحرف على الجدار بدماء جان جاك روسو.

Twitter: @ketab_n

- 17 -

ملكة بولونيا

ها هي ملكة بولونيا التي يعود إليها الفضل في تواصلي مع الثعالب الشاحبة. لم أقدمها لكم سابقاً، على الرغم من شوقي إلى ذلك، حفاظاً على التسلسل الزمني لأحداث النص.

تعرفت عليها في بداية شهر آب في مسبح «التوريل» حيث اعتدت الذهاب في الصباح الباكر قبيل اكتظاظه بالمرتادين. أن يبدأ المرء نهاره بقطع أطوال بركة السباحة جيئة وذهاباً، لهو أمر يبعث السكينة في النفس.

في ذلك الصباح، كانت هنالك امرأة لم تتوقف عن الدوران حول حمام السباحة. هي أيضاً كانت تقوم بقطع أطوال، لكن من دون الغطس في الماء، فقد كانت تمشي على حافة البركة ببطء شديد لدرجة أن حركتها كانت تثير فيَّ الإحساس بعدم الارتياح.

كانت امرأة جميلة في الأربعينات من عمرها، شعرها أشقر طويل، ترتدي لباس سباحة من قطعة واحدة ومبذلاً مفتوحاً على صدر تبدو فخورة به، أثداء كبيرة ومقببة لا تنسجم ونحالة جسدها.

Twitter: @ketab_n

كانت متبرجة بشكل كبير وشفاهها ضخمة. جذعها المشدود وخطواتها توحي بشيء من النبالة، تمايل خصرها ذكرني أيضاً بكاهنات الإله ديونيسوس اللواتي يلوحن بغطائهن عند انتشائهن، حزام مبذلها كان يضرب بخاصرتها على وقع خطواتها. هكذا يدور العالم حول نفسه، أنثوي، خام وصعب الفهم.

قطعاً، لم تكن هذه المرأة ممن يعترفون بالبدهيات، من دون شك هناك شيء من الوقاحة في أنها تتمشى على طول بركة السباحة كما لو كانت تتسكع في ممرات قصر.

تابعت سباحتي دون أن تفارقها عيناي. أخيراً، جلست لتقرأ كتاباً على حافة البركة بالقرب من الدرج الصغير ووضعت قدميها في الماء. لا أعرف ما هو المزعج في تصرفها هذا. على الرغم من أني كنت على يقين مما يمكن أن تُلام عليه، فالبراءة القصوى لا تثير ردات الفعل الغاضبة فحسب، بل تجذبها جذباً.

أثار تشاحنها مع مدرب السباحة جلبة خفيفة، رمت فجأة الكتاب في حوض السباحة. سبحت قليلاً لألتقط الكتاب ولما خرجت من الحوض كانت المرأة قد اختفت. أعطيت الكتاب لمدرب السباحة إلا أنه رفض أن يستلمه، فقد كانت هذه المرأة تثير حنقه. بعد أن استحممت، حاولت فك التصاق صفحات الكتاب بتجفيفه بمجفف الشعر. كان عنوان الكتاب «الحرب الأهلية في فرنسا» لكارل ماركس، غلافه أحمر من لون لباس سباحة المرأة.

كانت تمطر خارجاً، ابتعت كوباً من القهوة من ماكينة القهوة بانتظار

Twitter: @ketab_n

توقف المطر. كنت معتاداً على تبادل الحديث مع «بيرتو» المسؤول عن بيع بطاقات الدخول. كان بيرتو صاحب هيئة مريبة أشبه بلصوص القرن الماضي، مقامراً كبيراً ممنوعاً من دخول الكازينوهات. وحسب رأيه فإن اللذة، التي يختبرها المرء لدى جلوسه على طاولة القمار، تتجاوز بأشواط تلك التي يشعر بها إيروتيكياً. هذا الدوار الذي يصيبه حسب كلامه كان بمثابة سبب وجوده. لا شيء آخر كان أكثر أهمية بالنسبة إليه من إثارة الدقائق القليلة التي تكون حياته فيها على المحك. على هذا النحو، كان يمضي لياليه في المقامر السرية في الحي الصيني بالقرب من «باب ايفري»، ليعود في الصباح ويلتحق مباشرة بعمله هنا الذي يصفه «بالواجهة».

سألته إن كان يعرف المرأة في لباس السباحة الأحمر، فأجابني:

– «أتقصد ملكة بولونيا؟ بالتأكيد إنها من المواظبين على المجيء إلى هنا. لم تدخل حوض السباحة يوماً، أظن أنها لا تجيد السباحة. في أحد الأيام قاموا بطردها لأنها تعرت بشكل كامل، لكنها تعود إلى هنا من وقت إلى آخر. أجدها مخيفة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 18 -

الحرب الأهلية في فرنسا

فتحت كتاب «*الحرب الأهلية في فرنسا*». ففتنتني الكلمات المطبوعة باللون الأحمر، كما لو أنها كانت شرارة متطايرة من لهيب نار. أدخلتني في متاهة الحكايات التي تُستحضر في كل زمان والتي تعود وتوارى ثرى النسيان. فلا شيء ننجح في إخفائه أكثر من مجرى التاريخ الذي أتى بالانتفاضات.

ومن دون شك، تبدو كومونة باريس 1871، التي يتكلم عنها ماركس في كتابه، أكثر المراحل تجاهلاً في تاريخ فرنسا. الجميع مُصرّ على الانتقاص من قيمتها، كما لو أنها كانت مجرد فورة فوضوية، أعطت مغالاة الفوضى فيها شرعية للقسوة المفرطة التي استخدمتها السلطة في قمعها، أو أنها، شرعنت لعدم التطرق إليها مطلقاً، والنتيجة واحدة. لكن هذا النسيان المحصن يعكس حقيقة ما يسمى بالسياسة في فرنسا.

هكذا إذاً استفاقت أشباح الكومونة في أحد أيام باريس الصيفية. كان يوم سبت، الجو كان مشبعاً برائحة أعواد الصليب والورود والتوليب،

Twitter: @ketab_n

وبرائحة كل أنواع الزهور التي تباع في أسفل شارع «الصين» على امتداد ساحة «فايان» وحول مشفى «تونون».

أثار كتاب ماركس حماستي، فخرجت من السيارة لأواصل قراءته وقوفاً في الشارع، لعل النداء اليائس للخلاص من النظام القائم، الذي ينتشر بين كلمات الكتاب، يمكن له أن ينتشر أيضاً في الهواء الطلق ويختلط بالشوارع ويدخل الأبنية ويتملك أجساد المارة. بالنسبة إليَّ فالكتاب أياً كان هو فرصة لا تعوض. فإذا أتيح للمرء أن يلتقي بعمل ما، صدفة، كما حصل لي عندما قرأت بيكيت أو روسو أو كتيب ماركس هذا، فهذا يعني أن شيئاً ما يكمن فيه وهو موجه إليَّ. الكتب جزء من اللعبة مثل الكتابات على الجدار أو اللقاءات، ومواصلة تحول المرء مرهونة باستيعابه لمضمونهم.

يسرد ماركس في كتابه هذا، الموجه إلى أعضاء المجلس العام للاتحاد العالمي للعمال، الأحداث التي وقعت ما بين 18 آذار و 28 أيار من سنة 1870، والتي أفضت، بعد انتهاء حرب 1870 بين ألمانيا وفرنسا واستسلام هذه الأخيرة، إلى انتفاضة شعبية امتدت لستة أسابيع من ربيع مشرق ورهيب في آن معاً، والتي تواجهت فيها قوى الحرية الحقيقية مع الجُبن المعتاد لمجتمع منحل.

هذه الثورة كما تعلمون قُمعت في مهدها.

إذا ما قرأنا الصفحات القليلة لكتاب الحرب الأهلية في فرنسا، سنفهم أن القمع الحكومي يخفي إرادة إجرامية تحت قناع حفظ النظام العام. يرى ماركس بأن هدف «تييه» وزبانيته كان: «إبادة باريس»، لكي

Twitter: @ketab_n

يستطيع التحالف المزدهر بين كبار الملاك وبين المصرفيين مواصلة دعم الحكومة التي كانت تتبع أوامرهم. كان لا بد من الخلاص نهائياً من كل ما يمكنه الإخلال بمنظومة الفساد هذه.

الهدف إذاً كان تصفية كل ما يعرض تجارة هؤلاء للخطر أو يشوش عليها. دفع هذا الجنون حكومة «تييه» إلى ارتكاب مجازر بحق أهالي باريس. فخلال الأسبوع الدامي اغتيل مناصرو الكومونة عن بكرة أبيهم بإطلاق النار عليهم، في أي وقت كان، وأينما تواجدوا، حتى لو كانوا في مقبرة «لوبير لاشيز». كان الهدف تطهير باريس من آخر قطر دم ثائرة، وتقديم جثث الثوريين الذين أعدموا وتركوا ركاماً في الحدائق العامة أو على المتاريس أو في المقابر الجماعية، كهدية إلى البرجوازية الفرنسية.

في خواتيم الأمر، لم يعد لعملية الإعدام من هدف سوى الإعدام نفسه، إذ يقول ماركس: «يا لهذه الحضارة المجيدة حقاً التي اقتصرت قضيتها الجوهرية على إيجاد مكان للتخلص من الجثث المتراكمة!».

قرأت الأربعين صفحة وأنا أقف على الرصيف تحت شمس الظهيرة، كان المذبح الذي أعددته للمشرد تحت قدمي يشع بشكل خفي. وضوء النهار ينعكس على الكتاب بصخب، لمحت الشعار الموجود في شارع «سوبرييه» الذي يقول: «فرنسا هي الجريمة» يومض بين الكلمات.

كما لو أن دم جان جاك روسو عاد ليسيل من جديد من مرتفعات باريس، كما لو أن دم الثوار لم يزل يسفك في فرنسا، كما لو أن التعابير التي بدأت تكتب بأحرف حمراء على جدران الدائرة العشرين أعادت إلى

Twitter: @ketab_n

الذاكرة، من خلال شهادة الضحايا، تاريخاً لم يُدخر جهد في إخفائه: قصة الحرب الأهلية التي اجتازت العصور وما زالت مستمرة حتى اليوم.

لا أدري ما الذي أصابني، انتابني الذهول وصرت أرتجف.

كانت هنالك مشحات بنفسجية على أوراق الأشجار التي عادت لتكسوها من جديد، وآثار حرائق على الجدران. ما من شك في أن المغامرات الغريبة التي عشتها منذ الليلة الأولى في السيارة بدأت الآن تنتظم ضمن خط منطقي واحد. رؤى عديدة تداعت في رأسي كأمطار عواصف الصيف الرمادية-الزرقاء المتقطعة. لقد كانت تدور في دوامات منذ الأزل، وانسلت آتية إليَّ عبر ثغرة في جسد الزمن. لكن ما معنى هذا العرض الخيالي؟

رحت أمشي بسرعة باتجاه نهر السين والكتاب في جيبي. انتقلت من جادة «غامبيتا» إلى ساحة «ريبوبليك»، ثم إلى شارع «توربيغو»، إلى الشارع الواسع المسمى «بولفار سيباستوبول»، منه إلى ساحة «شاتليه» لأصل إلى حافة النهر، وأنا مستغرق في هذه الذاكرة التي لا تخصني، تلك الذاكرة التي لا تعود لأحد. أظن بأنها تخترق الأجساد المتوفرة كي تجمع، في نقطة واحدة، الماضي والحاضر والمستقبل.

Twitter: @ketab_n

- 19 -

مقبرة «لوبير لاشيز»

كان هناك حادث سير على المتحلق عند بوابة «بانيوليه»، غص قسم الإسعاف في مشفى «تينون» بالضحايا، نُصِبت خيمة في ساحة «غامبيتا» بغية جمع الدم من المتبرعين.

أذكر أنه خامرتني فكرة بأنني لو تبرعت بدمي، من الممكن أن يقدموا لي سندويشة، لكن سرعان ما بدت لي الفكرة دنيئة لا تخطر سوى على بال الفقراء والأشخاص المنبوذين. هل كنت «منبوذاً»؟ لا، فالوحدة التي أعيشها لم تكن نابعة من أي نوع من الشقاء، بل من الرغبة في أن أكون شخصا مستقلاً، الأمر الذي يستدعي اختبار الوحدة النهائية. اعتقادي هذا راسخ لدرجة القول إنني مؤمن بذلك.

الوحدة النهائية لا يمكن قياسها، هي كالصاعقة التي تضرب الروح فتنقسم في داخل المرء إلى ما لانهاية ليصبح الشخص، على طريقته الخاصة، وحيداً بشكل خالص. كل الناس، حتى أولئك الذين يعيشون مع أزواجهم أو الذين يشكلون جزءاً من عائلة، يعرفون هذه الهاوية التي

Twitter: @ketab_n

أتحدث عنها، فلا شيء يضاهيها، ولا حتى أكثر المعانقات قوة، ذلك أن الوحدة النهائية هي الاسم الآخر للحب: الكون يحترق داخلها.

لا، لم أكن منبوذاً من أحد، بل على العكس، لقد كنت محظوظاً بوحدتي. فالوحدة هذه ستصبح قريباً مهددة بالانقراض كحال نمر الثلج الأرقط. العزلة مرادفة للحرية في زمننا هذا الذي استطاع أن يسلعن كافة الرغبات.

دخلت الخيمة التي قسمت إلى عيادات متجاورة تفصلها عن بعضها البعض ستائر بلاستيكية، لتبدو كمقصورات انتخابية. أرشدوني إلى المكتب حيث ملأت استمارة الموافقة على التبرع. سمعت امرأة تحتج من خلفي، كانت تريد التبرع بالدم وقد ملأت الاستمارة إلا أن المسؤولين رفضوا ذلك بحجة أنها لم تبرز ما يثبت هويتها. استدرت نحوها وإذ بي أرى ملكة بولونيا.

نظاراتها السوداء ولون شعرها الأشقر الفضي ومعطفها المطري من نوع بيربوري وجواربها الحمراء، كل ما فيها، حتى حضورها في هذا المكان كان يبدو لي ضرباً من الخيال. انتابتني سعادة غريبة. قلت للمسؤول إنني أعرفها وإننا أتينا سوية وقمت بإعطاء هويتي.

أتت ممرضة لتقوم بسحب الدم. شاهدت الكيس وهو يمتلئ بالدم، وبعد وجبة خفيفة قدموها لي، خرجت إلى الهواء الطلق.

كانت ملكة بولونيا واقفة في الساحة. كانت قد عقدت على رأسها وشاحاً أزرق سماوياً من الحرير. ابتسمت وهي تدخن سيجارتها، ورمقتني بنظرات خبيثة:

Twitter: @ketab_n

- «هكذا إذاً، جئنا سوية؟».

* «قلت ذلك لأساعدك».

- «هل أنت قديس؟».

* «القديس يوحنا».

- «أيستطيع القديسون استخدام المدافع؟».

* «استخدام البنادق بالأحرى، ويقرؤون ماركس».

أخرجت من حقيبتي كتاب الحرب الأهلية في فرنسا لأعيده إليها، لم يبد عليها الاستغراب. مظهر غلاف الكتاب المتموج جعلها تبتسم، وأصرت على أن أحتفظ به كونها لا تحتفظ بالكتب التي تقرؤها. إنها لا تملك أي كتاب حتى إن كان قيماً في نظرها، مثل هذا الكتاب الذي يحوي في آخره على لائحة أسماء الأشخاص التي وقع لها ماركس نسخة منه، ومنهم جدها البعيد فاليري فروبليوسكي، مراسل «الأممية من أجل بولونيا».

بدأنا نتمشى دون وجهة محددة، ولما وصلنا إلى أمام الفراغ الكبير في شارع «ستاندال» قالت لي إن اسمها هو آنا كريغر لوفين، حتى ولو أن الكثيرين يسمونها ملكة بولونيا، وهي التي شجعتهم على ذلك، بداعي إضفاء نوع من الفانتازيا على شخصها.

قالت لي إنها قامت بإحراق أوراقها الثبوتية، وإنه من المُلح اليوم أن يتخلص الجميع من هوياتهم. فإن لم نتخلص من مفهوم الهوية ستتمادى الحكومة وتفرض علينا ارتداء الأساور الإلكترونية التي ستزين

Twitter: @ketab_n

معاصمنا لمراقبة كل تحركاتنا. ما رأيي الشخصي بهذه الحكومة التي تطبق علينا بفكيها؟ ارتسمت أمام عيني صورة قدم المشرد في حاوية القمامة وقلت: «فرنسا هي الجرم بحد ذاته».

أجابتني بهدوء لا يخلو من جنون، أنه علينا اللجوء إلى استخدام السلاح والرد على الجريمة بالجريمة:

- «لا شيء أكثر إيلاماً من ندبات الجروح. على الدم أن يسفك. وأن يغرق المجرمون بدورهم في بركة الدم التي يبدو أنها تثير لديهم المتعة. لطالما ظن هذا البلد أنه بمنأى عن المجازر التي تسبب بها، لكن فجوره يتجلى في ابتسامة ممثليه المقززة».

هناك درج طويل أسلكه يومياً للوصول إلى مكتبة «مارغريت دوراس»، الدرج يصل بين شارع «لوسيان لوين» وحي «سان بليز» حيث صالة «لافليشدور». تزينه من الجانبين أشجار الكستناء التي تشكل أوراقها مظلات. من الممتع أخذ قسط من الراحة تحت فيئها. جلسنا على واحدة من أولى الدرجات. الهواء كان رقيقاً أزرق باهتاً ذهبياً.

على عكس أغلب الرجال والنساء الذين كان نورهم يخفت، كانت ملكة بولونيا تشع ضياء. حركاتها وكلامها كانا يوحيان بحيوية المفاجأة. أعتقد بأنها كانت تظن نفسها مالكة الأرض بكليتها كونها زاهدة بكل شيء. كان عنفها من القوة بمكان بحيث أنه يدحض حتى النفي الذي يشكل جوهره.

دخنا السيجارة تلو الأخرى. أحب سماء الغروب، عندما تهدأ الرغبات، وعندما نمتلك متسعاً من الوقت. وعلى الرغم من عنفها،

Twitter: @ketab_n

كانت هنالك هالة لذيذة تحيط بوجه آنا وتضفي على نظرتها شيئاً من الحزن، لكن ثغرها كان نهماً وضاحكاً.

كانت تعيش بطريقة فيها تملص وارتجال لدرجة أنها كانت جاهزة دوماً لكل شيء جديد، فما من مشروع ثابت ينظم إيقاع حياتها:

- «كل صباح أقول لنفسي عندما أخرج من البيت: اتجهي يميناً، تسلكين درب الرب، أما إذا اتجهت يساراً فستجدين الشيطان. لكن مهما كان الاتجاه، يميناً أو يساراً، فإني أقع في حفرة، إن نهاراتي عبارة عن حفر عميقة. لا يتولد عندي الانطباع بأني أقع، ما يحدث لا يشبه السقوط، بل إنني موجودة داخل الحفرة. خسرت تقريباً كل شيء في حياتي، فقررت ألا أعود لحماية نفسي من كل ما يمكن أن يصيبني. النهارات والليالي أصبحت بذلك كالموسيقا بالنسبة إليَّ. أحياناً يكون اللحن شنيعاً كما لو أن جرذاً يعزف على آلة الفلوت، لكن في أغلب الأحيان يكون اللحن كأنغام الجاز الذي يعزفه «براكستون» أو «تريستيانو»، أشعر بأني لا أريده أن يتوقف. لا أريد أن أعود إلى البيت مساءً مع الشعور بأني أضعت نهاري سدى. أريد أن أحيا حياتي بكثافة، كل يوم، كما لو أن عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاماً من حياتي تركزت كلها في أربع وعشرين ساعة. لا أريد حتى النوم ليلاً، فالنوم هزيمة، النوم هو ما يجعلنا نصبح كهولاً».

خلعت حذاءها ومسدت أصابع قدميها ومدت رجليها على الدرج. لمحت الخياطة على جرابها، وأثناء كلامها، كانت حركة أصابعها النحيلة، شديدة البياض، والتي يزين أظافرها طلاء أحمر، تخط في الهواء أشكالاً أيقظت فيَّ الرغبة.

Twitter: @ketab_n

قالت إن أيامها لم تكن بالطبع كلها وردية إنها أحياناً تمر بلحظات صعبة، والوصول إلى الحضيض ليس أمراً بتلك الأهمية، فما زال في وسع المرء أن يستمتع بالألوان والأشجار والنبيذ وبنبضات القلب.

هناك مشهد من مشاهد الكومونة شكل لها هاجساً، مشهد حصل بعد المجزرة، وفيه تم استعراض مناصري الكومونة الأسرى الذين بقوا على قيد الحياة، في شوارع باريس «الكبرى» بالقرب من أوبرا «غارنييه». مر الموكب من أمام أعين أعداد غفيرة هائجة من البرجوازيين وزوجاتهم، الذين لم يشف غليلهم فشل الثورة. وفي حين كان الأزواج يتلهون بشتم الفتيان الذليلين بالقيود التي تكبلهم، كانت الزوجات تشجعن بعضهن البعض على العنف، حيث قامت ثلاث نساء منهن بفك الدبابيس الطويلة التي تستخدم لتثبيت القبعات بشعرهن، وفقأن عيون الأسرى بها، لتتعالى أصوات التهليل في الحشد.

لا أعلم إن كانت تبوح بها يجول في خلدها لكل من تصادفه. ربما كانت تعتقد بأنه من الطبيعي التحدث عن تفاصيل حياتها وجروحاتها، كما لو أن الخصوصية أصبحت مفهوماً من الماضي (كما لو أنها لم تعد تمتلك أية خصوصية). على أي حال، كنت أنصت إليها بانتباه يشبه ذاك الذي تحفّزه القصص الأكثر أهمية. في أغلب الأحيان تقتصر حياة كل واحد فينا على الأشياء المريحة، وتحكيم العقل بكل شيء يؤدي إلى عيش حياة لا متعة فيها. هي لم تكن متعلقة بشيء، هي أيضاً كانت تعيش وحدتها. وهذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها أحداً على هذا القدر من التحرر.

باحت لي بأن لديها ابناً يبلغ من العمر عشرين عاماً لا تعرف عنه

Twitter: @ketab_n

شيئاً. لقد اختار أن «يختفي اجتماعياً في دوامة التنقل للإقامة في المنازل الفارغة». لا بد من أنه يعيش الآن في مكان ما في ضواحي «ليون» أو «مارسيليا» أو «مونبيليه»، ضمن طائفة من الناشطين السياسيين الذين لا يمكن إدراكهم، والذين لا يحبذون أي شكل من أشكال التواصل.

لقد عاشت لمدة طويلة في حي «باوري» في مدينة نيويورك على طريقة البانك. كانت آنذاك راقصة باليه تمضي وقتها في السرير وهي تتعاطى المخدرات بصحبة رسام، تمارس الجنس وتشاهد أفلام السينما الصامتة. أتت بعد ذلك إلى أوروبا حيث قادها فقر الحال إلى الخوض في تجارب بشعة.

تزوجت مرتين. الأولى في أميركا، عندما كانت في ريعان شبابها، حيث تزوجت من رجل ثري خصص لها سيارة ليموزين كي تقلها لحضور محاضرات عن تاريخ الفن. بعد ذلك، ارتبطت في باريس بشاعر إيطالي توفي بعد أن سقط من شرفة في الطابق السابع. عاشت معه حياة أشبه بالتشرد لمدة ثلاث سنوات، في غرفة خدم صغيرة، حيث كانا لا يقومان بشيء إطلاقاً سوى بممارسة الجنس. وهي تتساءل حتى اليوم إن كان سقوطه عرضياً أو إن كان انتحاراً.

انتقلت في حياتها أكثر من مرة من النعيم إلى نقيضه، إلا أنها كانت تجابه ذلك بلا مبالاة، إن حياتها تتمحور حول هذا التناقض الذي يبعث على الدوار. وهذا الدوار هو ما جعل منها امرأة جذابة.

أمضينا النهار ونحن نتسكع سوية. كنا نبحر في ضياء الشوارع كمسافرين مذهولين. بدا لي فجأة بأني أستطيع أن أتمشى بصحبة شخص

Twitter: @ketab_n

ما، وأن أمضي ساعات ما بعد الظهر الثقيلة بالكلام والشرب والضحك. قلت لنفسي إنه ما زال بإمكاني الشعور بأني على قيد الحياة وإن السعادة تصل درجة الكمال عبر البساطة التي تطرد القلق.

هذا المساء بعد أن تناولنا العشاء، تمشينا بمحاذاة مقبرة «لوبير لاشيز» ودخلنا إلى بار «لاسوري ديغلنغيه» بالقرب من محطة مترو «ألكساندر دوما» وطلبنا نبيذاً وفودكا. جلسنا ملتصقين ببعضنا البعض على مقعد من المخمل البنفسجي، ورحنا نتبادل المداعبات تحت تأثير الكحول. في لحظة ما، وضعت يدي ما بين فخذيها فارتمت على فمي وعضت شفتي. كنت سأطلب كؤوس فودكا أخرى عندما وضعت على الطاولة أمامنا مفتاحاً صدئاً وقالت: «فلنذهب إلى مقبرة لوبير لاشيز». واكتفت بالابتسام كرد على الدهشة التي أبديتها.

الليل كان ثملاً، والقمر أيضاً. اشتريت من بقالية الحي زجاجة فودكا بولونية من نوع «زوبرفكا» بطعم عشبة البيسون، شربنا منها نحن الاثنان من عنق الزجاجة مباشرة. أمسكت آنا بيدي وراحت تركض في الزقاق المسدود المؤدي إلى بوابة الحديد المكتوب في أعلاها: «باب الريونيون». أدارت المفتاح في القفل ودخلنا دون أن نتفوه بأية كلمة.

لفحت الرطوبة القوية وجوهنا. العتمة وإبر أشجار الصنوبر الكثيفة وبرودة المدافن، كل ذلك كان يثير الكآبة. ضحكت آنا وخلعت حذاءها ورمته على العشب. الفراغ بجانب حائط الأعضاء الاتحاديين، حيث جمعت قبور مقاتلي الكومونة، كان يوحي بصورة سماء تتلألأ فيها النجوم. تأملت من حولنا الأطياف السوداء التي ترسمها الأشجار في

Twitter: @ketab_n

الظلمة، وانتابتني قشعريرة من رؤية الصلبان التي تشق غمار الليل. قمت بدوري بخلع حذائي وأحسست بدفء العشب. اقتربت آنا مني وقبلتني مطولاً. كانت قد فتحت أزرار ثوبها، فشعرت بنهديها الثقيلين والدافئين يلتصقان بي. أنزلت سحاب بنطالي وقامت بمداعبة قضيبي وهي راكعة. بدأت السماء تترنح أمامي وسمعت صوت بومة وخفق أجنحة في أغصان الشجر. استلقينا أرضاً وحضنا بعضنا بعضاً بهيجان زاد من حدته الكحول. لم يبق يستر جسد آنا سوى الجراب الذي كان قد اتسخ بالطين. كان عريها يذهل بقدر ضوء صاعقة في الليل... أشارت بإصبعها إلى أحد القبور الواقع بين نبات السرخس وراحت تزحف نحو الشاهدة. بدت مؤخرتها تحت ضوء القمر بيضاء حليبية. كنت عارياً أنا الآخر فتبعتها على أربعة. حين وصلنا قرأنا المكتوب على الشاهدة بصوت عال:

فاليري فروبليوسكس

1908-1836

مقاتل في سبيل الثورة البولونية عام 1863

جنرال في كومونة باريس من 18 آذار إلى 28 أيار 1871

رشّت القليل من الفودكا حول القبر وقالت وهي تبتسم: «هذا طقس من طقوس سحر الفودو». ومن ثم سكبت منها على ثدييها فسارعت إلى لحسها. أخذت تشرب الفودكا من عنق الزجاجة وركعت على أربعة فوق حجرة القبر بحيث يكون رأسها بالقرب من اسم البطل وطلبت مني أن أضاجعها بقسوة. وضعت إصبعي في فرجها الذي كانت قد بللته الفودكا وولجتها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 20 -

الراوي

ابتسمت آنا حين أريتها الكتابات. ابتسامتها منحتني الثقة، فأن يعجبها زقاق الشيطان يعني أنها على علم بشيء ما. هذا الاسم له تأثير السحر عليها، ظلت تتكلم عنه طوال النهار وتلفظ هاتين الكلمتين بحماس المناصرين. كون المجتمع غير موجود وكون فرنسا هي الجريمة، بدت أنها بدهيات بالنسبة إليها. والفاقة مألوفة بقدر ما هو الاحتجاج.

دعوت آنا إلى مشاركتي في الاستماع إلى «انجريد كافن» التي تؤدي أوبرا «بييرو القمري» للمؤلف «شونبيرغ»، وكانت ستُبث إذاعياً هذا المساء. لم أخبرها بأني أعيش في سيارة. حين وصلنا إلى شارع الصين وفتحت لها باب السيارة بدت آنا مستمتعة. أشعلت المذياع وفتحت الصندوق فقام الضوء الأزرق الخافت بمؤانستنا. ابتسمت لما رأت مجسم غودو المعلق على المرآة فقد استحسنت هذا الطوطم، كما كانت تسميه، فيه أناقة شيطانية كما قالت.

هبط الليل مع أولى ألحان أوبرا «بييرو». توقفنا عن الكلام، لم أعد

Twitter: @ketab_n

أشعر بوجودها، أحسست بنفسها المتسارع الذي يضغط على صدرها. وحده همس السيجارة وهي تلامس شفاهها كان يدل على حضورها.

تمايلت السيارة على وقع أنغام الموسيقا كما لو أنها أضحت قارباً تتلاطمه الأمواج. إن صوت انغريد كافن يتجاوز مستويات الغناء البسيط، كان يقع على آذاننا على شكل قطرات شاقوليه متواترة تذكر بالأصوات اليابانية التي تكسر خرخرات الغنائية التقليدية، وتحررها من قيود العلامات الحادة والعريضة، ومن الإيقاعات السريعة والبطيئة، لتصبح كتموجات صوت لاذع لطفل يُفجر الظلمات بطرافة.

أرخت آنا برأسها على حجري. ما زلت أشعر بالرقة التي رافقت هذا الموقف حتى هذه اللحظة التي أكتب بها النص. عندما رفعت رأسها عند انتهاء الأوبرا كانت قطرات مطر صغيرة قد بدأت تهطل على زجاج السيارة الأمامي جالبة معها رائحة التراب ولحاء الشجر الدافئ.

سألتني إن كان باستطاعتها استعارة غودو مني. لقد خامرتها فكرة وقالت إنها ستعيده إليَّ في غضون بضعة أيام. نزعت المجسم وأعطيتها إياه. تبادلنا القبلات واقترحت عليها أن تنسل من بين المقعدين الأماميين نحو مؤخرة السيارة التي تملؤها فوضى من المصابيح الكهربائية المستعملة ودفاتر وكتب، ومن الصور التي ألصقتها على الزجاج، والتي كانت مع الضوء الأزرق تشكل الفضاء الذي كنت أحيا فيه. قالت آن إن سكني يشبه كوخ روبنسون كروزو[5].

5- بطل رواية دانيال ديفو، وهي سيرة ذاتية تخيلية تحكى عن شاب انعزل في جزيرة، وحيداً لمدة طويلة دون أن يقابل أحد من البشر.

Twitter: @ketab_n

بعد عدة أيام، عادت آنا لتقرع على النافذة وأنا أكاد أغفو خلف مقود السيارة. كان ذلك في نهاية فترة ما بعد ظهر غائمة تنبئ بعواصف مطرية قادمة. اقترحت علي الذهاب لرؤية صديق لها يسكن في شارع «كورون» في أعلى حديقة «بيلفيل». في ذلك اليوم كانت تغمرها خفة جميلة لدرجة أنها كانت ترقص في الشارع. قطعنا مقبرة «لوبير لاشيز» وسرنا في الأزقة المحاذية لبولفار «مينيلمونتان» حتى وصلنا إلى محطة مترو «كورون». كما قلت سابقاً، إن مرافقة آنا تبعث على السعادة.

عند تقاطع شارعي كورون وترانسفال ينتصب فندق «سبلانديد-هوتيل»، البناء ذو الواجهة القرميدية التي تغطيها أوراق شجر اللبلاب. على سياج أحد شبابيكه أزهرت نبتة وستاريا حيث غمست وجهي. اقترحت آنا عليَّ فجأة أن نقوم بممارسة الحب في هذا الفندق.

عندما خرجنا كان الليل قد حل، وكانت أضواء خافتة تتراقص بصمت ما بين أغصان الأشجار، والمدينة تبدو من الأعلى كبحيرة مُضاءة. واصلنا صعود تلة «بيلفيل» حتى البناء رقم 73 حيث توقفت آنا وأشارت، مع ابتسامة عريضة ترتسم على محياها، كما لو أن الأمر كان مفاجأة حضرتها لي، إلى رسم إله السمكة - غودو، الذي رسم على الحائط، ترافقه هذه الكتابة المخطوطة باللون الأحمر:

الهوية = لعنة

دخلنا إلى باحة داخلية واسعة من مدخل البناء رقم 75. حياها الشباب السود جميعهم، كانوا يتحدثون بين بعضهم البعض ويشربون

Twitter: @ketab_n

البيرة، طلبت مني آنا أن أصعد الدرج إلى أن وصلنا إلى شقة كان بابها مشرعاً، ومن الداخل نسمع عزفاً على آلة الكورا.

دخلنا ممراً طويلاً أفضى بنا إلى مجموعة من الغرف المتتابعة المعتمة والمستقيمة كما لو أن هذه الشقة قد حفرت في الصخر، وكما لو أن جدرانها المتشققة صممت من أجل أن يتم إحياء شعائر فيها. في كل زاوية على الأرض ركام من الكتب، ونباتات ضخمة أوراقها غير منتظمة، وأقنعة تغطي الجدران. شباب سود يتنقلون بين الغرف جيئة وذهاباً ويحيون آنا التي يبدو أنها كانت تعرف كل واحد منهم. في إحدى الزوايا، على ضوء الشموع، تعرفت على وجهي عيسى وكوريه اللذين ابتسما لي.

ماذا كنا نفعل هنا؟ هل نحن في حفلة؟ خامرني إحساس بأننا كنا ندور في متاهة. وكانت الأقنعة تزداد كلما توغلنا في تعرجات الشقة: أغلبها كان مدهوناً بخطوط من الأسود والأبيض، وقمته مزينة بكتلة من الألياف الحمراء، تعلوها تباعاً سارية أو صليب. الظلام الدامس أضفى على قسماتها الحادة مظهراً يبعث على الرهبة. أفواهها التي على شكل مَعين وأعينها على شكل مثلث، وقرونها المنتصبة نحو السماء بدت كمن يتحدى عدواً ما. التجهم البادي على وجوه الأقنعة أوحى إليَّ بالموت. شعرت بانزعاج وكأن الأمر برمته كابوس.

قدمت لي آنا كأساً من الرَّم[6]. أصبحت الموسيقا أكثر شدة الآن، وبدأت أجساد الشباب السود بالاهتزاز على وقع ألحان آلة الكورا[7].

6- شراب كحولي مصنوع من دبس السكر.

7- آلة وترية تستخدم على نطاق واسع من جانب الشعوب في غرب أفريقيا.

Twitter: @ketab_n

أحرق الرَّم حلقي، الأشكال الحمراء والسوداء للأقنعة أيقظت القلق في نفسي فانتابني إحساس متزايد بالذعر.

توجهت آنا نحو رجل ذي قامة طويلة كان الشباب يدورون حوله. أعطته الورقة المرسوم عليها غودو وأشارت إليَّ بإصبعها ليحدق الرجل بي طوال مدة محادثة آنا له.

تنحت آنا جانباً، فاسحة المجال للرجل الذي يسميه الجميع هنا الراوي، ليتقدم نحوي ماداً يده. كان وجهه نحيلاً وشعره رمادياً قصيراً وعيناه تنضحان حيوية، وحركاته بطيئة تنم عن شخصية محارب بالفطرة. أعاد إليَّ الورقة التي كنت قد أعرتها إلى آنا وقال لي مبتسماً: «علمت أنك تسميه غودو، حدسك قوي. هل كنت تعلم بأنه يمثل إلهاً؟».

* «لا، فأنا أبحث منذ أشهر».

- «هو الثعلب الشاحب».

حدّقت برأس السمكة دون أن أفهم ما يربطهما. فأردف قائلاً:

- «رأس السمكة هو أحد أقنعة الثعلب الشاحب وأحد تحولاته، إذ كان أيضاً قد اتخذ من الحية والسلحفاة والعنكبوت شكلاً له في السابق».

تذكرت جدران حانة زوربا والثعلب الصغير الذي قامت برسمه ميريام التي كانت أول من حدثني عن شعب الدوغون وعن هذا الحيوان الفوضوي الذي ثار ضد الخلق. بشكل أو بآخر، لقد كانت الأمور واضحة أمام عيني منذ البداية، إلا أن ما فعلته كان الابتعاد عن الحقيقة باتباع طريق دائري أغلقت حلقته أخيراً هذا المساء.

Twitter: @ketab_n

سألت الراوي عن معنى الكتابة التي كنت اكتشفتها للتو في الشارع أسفل البناء. فأجاب:

- «ما من أحد منا هنا يحمل أوراقاً ثبوتية. هناك من لم يحصل نهائياً على أوراق ثبوتية لأن فرنسا تعتبره مهاجراً غير شرعي. وهناك من حصل على أوراق وأتلفها، حتى لا يشكل غيابها نقصاً، بل نقطة قوة. المجتمع يريد لنا هوية كي تسهل مراقبتنا وعلينا أن نتخلص من مثل هذا المنطق».

حدثني الراوي عن الثعلب الشاحب وقال لي إنه إله غير محب للبشر. فهو يسكن قلب الدمار، الأمر الذي يجعله عالماً بالخراب الذي يجتاح العالم في الوقت الراهن. وحشيته فن، تجعل منه متمرداً منذ بداية الكون. فحسب أسطورة الخلق لدى شعوب الدوغون، خلق الثعلب الشاحب الفوضى من اللحظة التي تحرر فيها من المشيمة وهاجم أباه، الإله الأب، رافضاً النظام الذي أرساه. وبذلك استطاع الوصول إلى خفايا الأشياء والتعرف على عالم الموتى. وعقاباً له على تدمير فكرة الانتماء، حُرم الثعلب الشاحب من ملكة الكلام وطرد خارج المجتمع ليعيش في وحدة لا يمكن تحملها، وليكتب المستقبل بقوائمه. فقد كان يمر كل ليلة على لوحات التنبؤ التي يرسمها كهنة الدوغون في الرمل.

هكذا إذاً، المخلوق الذي كان منذ عدة أشهر ينادي، عبر باريس، بالمقاطعة، يشكل عالماً كاملاً لوحده، قادراً على قلب واقع عالمنا عن طريق الانتفاض.

أحسست بقرب مجيء هذا الواقع الجديد. ألم يستقر الثعلب الشاحب هنا في باريس؟ نظرت إلى الأقنعة المحيطة بنا والتي تملأ الجدران. كل

Twitter: @ketab_n

واحد منها كان بمثابة إعلان حرب، فالأرواح التي تجسدها وكل شخص يرتديها يقول لسكان هذا العالم الصغير الشاحب الذي نعيش فيه حياتنا الخاملة، بأنه أصبح من السخف بمكان الاعتقاد بأننا أحياء، طالما لم نحارب بعنف كل ما يستعبدنا، وطالما لم نقلب هذا الواقع الذي يقتلنا.

وضع الراوي على الطاولة الخشبية كتاباً عن الثعلب الشاحب، حين فتحه تناثرت أوراقه في كل الاتجاهات. كان بينها رسوم بيانية (أوديسا) تمثل رحلة هذا الإله المتمرد، وهي أشبه بركام من العلامات التي تنتظر من يقوم بتأويلها. والكتاب بشكله المنفرط في كل الاتجاهات كان يعرض ومن خلال شكله الإفراط الأسطوري الذي يتكلم عنه، كما لو أن الثعلب الشاحب هو نفسه من رسمها بقوائمه، مضفياً عليه صبغة أفعوانية غامضة تميزه.

قال لي الراوي:

- «ألاحظت أننا هنا في «بيلفيل» نقف على حافة منحدر؟ مثلنا في ذلك مثل شعوب الدوغون المتمسكة بحجارة جبالها الحمراء».

تركني وحيداً مع الكتاب، فرحت أتصفحه بشغف كما لو كنت منتشياً. بدا لي أنني كنت دائماً أدور بين جمله وأن قدري كان مكتوباً في سطوره. أدخلني الكتاب في أحداث قصة تعود لآلاف السنين لكنها أيضاً من أكثر القصص شباباً، قصة تحمل الأمل بغد يمكن أن يعاش، غد يكون فيه للسياسة معنى. تعفن الحلم الغربي القديم بالثورة، وأعتقد بأنه إذا أردنا إحداث تغيير ما، وبأن يكون هنالك صحوة، فسيكون ذلك من خلال الثعلب.

Twitter: @ketab_n

كم من الوقت بقيت في الغرفة؟ كنت مرتاحاً عند خروجي منها، ولم تعد الأقنعة تثير الخوف فيَّ، فقد فهمت بأن في كل واحد منها يرسم خطاً يربط ما بين الأحياء والأموات. وبفضل هذا الخط تشكل الأقنعة كتابة مقدسة، ورسالة ثورية، ترتسمان على الجدران.

شباب كانوا ينامون على الأرائك والكراسي أو على الأرض متكئين على وسادات. بدأت السماء تصفو. عبرت الشقة نحو الغرفة التي يصدر منها النور، فوجدت الراوي جالساً خلف مكتبه يكتب. تقدمت نحوه وأعطيته بطاقتي الشخصية. تبادلنا النظرات دون أن نتكلم، ثم قام بتقطيعها بالمقص لقطع صغيرة قبل أن يرميها في صحن سجائر أشعل فيه ناراً، كان اللهب أحمر وأسود كما الأقنعة. ابتسمنا.

Twitter: @ketab_n

II

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم يتم استعباد العالم بشكل كامل. لم نهزم بعد. ما زال هنالك الفاصل، وفيه كل شيء ممكن.

أعدنا ترديد هذه الجمل الثلاث التي تضيء الليل كوميض: لم يتم استعباد العالم بشكل كامل... لم نهزم بعد. ما زال هنالك الفاصل، وفيه كل شيء ممكن.

صحيح، كل شيء ممكن: لم تحتج باريس سوى عدة ساعات حتى تحولت إلى حاضنة لشغب مجنون، وقد حفزت النار المشتعلة في السيارات أرواح المارة للالتحاق بالركب.

لا بد من أن اندلاع الثورة بمثل هذه السرعة قد فاجأكم، ولكن من المنطقي أنه عندما يلعب العالم بالنار سيحرق نفسه بها أولاً، وأن الفوضى ستهدد دوماً من يعتقد أنه يحكم البلد. ألم تتركوا بلدكم يغرق في الظلم؟ ألم تجعلوا كل واحد من ساكنيه شريكاً في انحلالكم؟

لا بد من أن تأتي لحظة لا يعود الواحد منا قادراً على تحمل العيش في مجتمع ينتقص من قيمته. والثورة التي تندلع من جراء ذلك لا تكون بدافع الغضب أو المطالبة بالحقوق، بل حركة رفض لشيء لا يدركه المرء لأنها قائمة على عدم الاعتراف بوجوده.

Twitter: @ketab_n

عندما تأتي هذه اللحظة تُضاء الحدود بين الممكن (في الحياة) وغير الممكن، تضاء بنور جديد. هذه اللحظة لا تعيد رسم الحدود فحسب، بل تلغي فكرة الحدود من أصلها، حيث يكفي أن يصيب اللاممكن البعض منا ليصبح الممكن غير موجود بالنسبة إلى الجميع. لا تقولوا لنا إن هذه الجملة هي عبارة عن شعار تجريدي، سنرددها على أسماعكم ألف مرة، إن اقتضى الأمر، كي تقتنعوا بها: «يكفي أن يصيب اللاممكن البعض منا ليصبح الممكن غير موجود بالنسبة إلى الجميع». لكن الوقت قد فات على أن يفيد هذا التكرار في شيء، فها هي الثورة قد اندلعت شئتم أم أبيتم.

منذ أسابيع عديدة والرماد يخفي الجمر. لاحظ ذلك عدة صحفيين وتحفزت قوات الشرطة، لقد بدأوا بفك رموز الإشارات التي ما فتئنا نبثها. استمرت النار في الانتشار وها هي الآن تبتلع شوارع بأكملها، ليصل الحريق إلى نهر السين الذي يتلألأ سطحه بأنوار المشاعل المتوهجة محولة إياه إلى بساط ملتهب.

لم نحتج إلى جهد كبير كي نضرم هذه النار، فمن السهل أن تحيل إلى لهيب عالماً كان يحترق من الداخل جراء الفوضى التي تعمه. كل ما بُني يفقد تماسكه وينهار، ففي هذا العالم كل شيء متساو بالقيمة، بمعنى أن أي شيء فيه مساو لنقيضه، أي أنه لم يعد هناك شيء له قيمة.

هنا تكمن قوة عالمكم المخيفة وهنا يكمن أيضاً ضعفه. لا تظنوا بأننا عندما نُعبر عن أنفسنا نهدف إلى إقناعكم أو حتى إغواء من يحلم منكم بالتغيير، فأنتم لم يعد لديكم أي أمل ولذلك فإنكم تعيشون في الجحيم.

تعتقدون أن عالمكم أصبح «شاملاً» كونه ألغى الحدود بين الدول

Twitter: @ketab_n

وسهل حركة الأفراد، لكنه في الحقيقة لا يقوم سوى بالتضحية بكل ما لا يدخل في منطقه ولا يتلاءم ومصالحه. ونحن نشكل البرهان الحي على أن هذا العالم كذبة كبيرة. نحن نتيجة الأضحية. نحن ما بقي منها.

نعامل كعبيد، نطارد ونقصى، لكن مهما حاولتم إجبارنا على ترك الساحة لكم، أو طردنا خارج حدودكم، سنعود لنطاردكم كما تطاردكم المجازر التي ارتكبتموها في مستعمراتكم القديمة، كما في «سطّيف» وفي «قالمة» في صيف عام 1945 في الجزائر، أو في السينغال عام 1944 حين صفيتم جنود المشاة السنغاليين في معسكر «تياروبه»، وكل الجرائم والتعذيب والمقابر الجماعية في الكاميرون ومدغشقر وساحل العاج: جرائم، تعذيب، مجازر.

شبح جرائمكم في إفريقيا سيبقى يطاردكم في فرنسا شئتم أم أبيتم.

في حال حاولتم فقدان الذكرة، أو الاكتفاء بالتكفير عن ذنوبكم، سنكون دوماً حاضرين لتذكيركم بحجم الفظائع التي ارتكبتموها، وشناعة تفاصيلها.

يبدو أنكم تسمّون استمرار التعذيب في العالم «تاريخاً» (بالمعنى الواسع للكلمة)، كما فهمنا بأنكم تستثنون إفريقيا من هذا العالم الجديد الذي تبنونه والغالي على قلوبكم. الحق معكم، لا شأن لإفريقيا بكم.

لسنا في معرض التمييز فيما إذا كانت نواياكم طيبة أم سيئة، فنتائجها كارثية في كلتا الحالتين. ما نود التكلم عنه هو الجريمة التي تجتاح بعناد جمهوريتكم والعنف الذي يقوض ما أسست عليه. نريد التكلم عن متعكم الوسخة.

Twitter: @ketab_n

ذلك ليس بغريب على بلد لم يعد لديه شيء يقدمه، وما زال يتباهى بحضوره الفكري. ترمون بلائمة التوحش على أولئك الذين يقاومونكم، ولا يزعجكم نسيان أن هذا التوحش الذي رافق الاستعمار هو من جعل منكم، ومن أوروبا المتحالفة معكم، من أجل نهب ثروات إفريقيا، قتلة محترفين. «أبيدوا هؤلاء المتوحشين عن بكرة أبيهم!» هذا هو النداء الذي وحَّد جميع المستعمرين عند تدميزهم قرى الكونغو وعندما ذبحوا السود المقاومين واغتصبوا نساءهم وداسوا أطفالهم الرضع بجزماتهم المصنوعة من جلد الجاموس. أما نحن فذاكرتنا أمينة، إذ نرغب بكل بساطة في أن نعيد الحقوق إلى ضحايا التاريخ (بالمعنى الواسع للكلمة).

بذلك سنكون خارجين عن القانون لأن أعمالنا تتجاوز الحدود التي وضعتموها لنا، ولأن حياتنا تتعارض ومصالحكم. لكن حين يكون القانون غير عادل، على العدالة أن تتجاهل القانون. تعتقدون من دون شك بأنه من المستحيل أن يوحِّد المهاجرون غير الشرعيين طاقاتهم، ففي تصوركم للعالم، يكون على المهاجر أن يلعب دور الضحية، ومن المفيد أن يظل كذلك. لكننا لسنا مجرد مهاجرين غير شرعيين.

تعتقدون بأنكم تعرفون كل شيء عن المهاجرين، لا لشيء سوى لأنكم شاهدتم تقريراً مصوراً عن هشاشة أوضاعهم في نشرة أخبار الثامنة مساء. علمتم أيضاً بأن بعضهم يعملون، الأمر الذي يميزهم بالنسبة إليكم عن باقي المنبوذين، ويجعلهم محبوبين في نظركم. أكثركم تسامحاً يظن بأنه من الفاضح أن تشغل هذه اليد العاملة بأجور جد بخسة، دون أن يعترف لها بأي حقوق مقابل العمل الذي تقوم به.

Twitter: @ketab_n

لكنكم بشكل عام تعبتم من هذا الحديث عن مصير المهاجرين غير الشرعيين، وتجدون في الأمر مبالغة. الحياة صعبة على الجميع، والفقر والحاجة لا يمسان فقط الأجانب غير المسجلين. وفي حال كنتم من مناصري اليمين ستقولون إنه ليس عليهم سوى أن يعودوا إلى بلادهم، وإن كنتم يساريين ستعتقدون بالشيء نفسه، ولكنكم لن تجرؤوا على البوح به.

ولكن إن كان من بيننا أشخاص يعملون فالآخرون، كما تدعون، لا يعملون بل ما زالوا يدرسون، الأمر الذي يكفي ليجعلهم شنيعين في نظركم. أتشكل البطالة تهديداً للنظام الاجتماعي؟ قد يكون محقاً من يعتقد ذلك، فالشخص الذي يمضي جل وقته دون أن يعود على المجتمع بفائدة هو شخص مضرب، والإضراب، كما هو معلوم، يؤثر على من يقوم به، يبتلعه ويفسد لديه النية الطيبة.

ما الذي يشكل بالضبط عصب عطالتنا؟ أهو اللامبالاة والكسل والتسكع؟ أم المرارة واليأس؟ أو التحدي والغضب؟ ألا يوجد فيه انسلالات خفية وتحضيرات مشبوهة وتدريبات غامضة استعداداً للثورة؟ القليل من كل ما سبق دون شك: لا بل السر الذي يحمينا.

إن تأمل الصحراء، التي يشكل كل منا فيها حبة رمل، يهدف إلى تكوين واحة صغيرة. سيكون في وسعنا، في بقعة الأرض هذه، في هذه الجزيرة التي نحن ملوكها وزعرانها في آن معاً - القراصنة الأبديون - أن نستمتع بحياتنا إلى ما لا نهاية. لكن هذه المتعة ليست منغلقة على نفسها بل تهدف إلى أن تكون بديلاً عن فرنسا بالنسبة إلينا.

Twitter: @ketab_n

البطالة، شئتم أم أبيتم، هي الأفق الذي ينحو إليه عالمكم. لئن كان الأمر يزعجكم، فذلك لا ينتقص شيئاً من حتميته. عالمكم المهووس بالربح يصنف الناس بحسب المردود الذي يعودون به، أما الأشخاص الذين لا يقدمون شيئاً، فماذا تفعلون بهم؟ إذا ازداد عدد العاطلين عن العمل فأنتم السبب، إذ إنه من المستحيل معرفة إن كانوا يتسكعون في الشوارع باختيارهم أو لأنهم قد قاسوا من اصطفائكم، هذا الغموض هو ما يجعل من تحديد هويتهم أمراً لا يمكن تحقيقه. هم من يتسببون بارتسام العبوس على وجوهكم، ويثيرون حنقكم كعقاب لكم.

أضرمنا النار في باريس كي تفتحوا عيونكم، يبدو أنكم تحتاجون إلى مزيد من النور كي تتضح الرؤية بالنسبة إليكم، فالسماء فوق رؤوسكم شديدة الرمادية وداكنة هي الغيوم. وأنتم بذواتكم، ومن خلال الأحاديث التي تجرونها على منصات المقاهي أو في المكاتب أو في صالوناتكم عندما تتابعون نشرة الأحوال الجوية، لا تكفون عن التململ من هذه الرمادية، من السماء الرصاصية اللون، ومن ستار الرماد هذا الذي يخنقكم.

من أجل أن تستفيقوا من سباتكم أحرقنا لكم سياراتكم وجعلنا من قيامتكم وقوداً لنار الفرح هذه. ألا يتلخص عالمكم بهاتين الكلمتين: سيارات وقيامة؟ القيامة والسيارات هما منجزكم الأكبر الذي تسمونه «حضارة».

استمعوا إلى كلامنا: كل سيارة محروقة هي تعويض عن إهمال لحق بنا. تظنون أننا ضد ممتلكاتكم وأننا نهاجم رموز المجتمع الاستهلاكي.

Twitter: @ketab_n

سياراتكم تحترق أمام أعينكم وتقولون إن هذا تخريب للممتلكات العامة، لكننا نحن الضحايا هنا، العزلة التي كنا نعيشها تلتهب حرقاً تحت منازلكم. لم تثر يوماً عزلتنا أية مشاعر فيكم، إلا عندما مست محسوبياتكم. أتستطيعون الشعور بالخجل؟ في كل مرة تحترق سيارة، في ضواحي باريس، تبادرون بالكلام عن وحشيتنا. تتخيلون بأننا نجد متعة في إضرام النار بسياراتكم ذات الدفع الرباعي، حتى أن بعضكم يعتقد بأن التحليل الأكثر ذكاء هو القول إن الأمر ليس سوى منافسة بين المجمعات السكنية في حرق أكبر عدد من السيارات. أتفهمون إذاً أنه من خلال هذا اللهيب تتوجه أصواتنا بالنداء لكم؟ نحن نكلمكم. إذا لم تسمعوا هذا النداء فمعناه أنكم لا تريدون سماعه.

توجب علينا على مر الزمن أن نتجاوز حزام باريس، وأن نشعل النار بالمدينة بأكملها، كما الليلة، كي تبدأوا بأخذ مثل هذه الأعمال التخريبية على محمل الجد. يبدو أن الوضع أصبح «مقلقاً» بالنسبة إليكم. على ماذا تنطبق هذه الصفة؟ على مصير سياراتكم؟ أم على الحال الذي أوصلتمونا إليه منذ سنوات عديدة؟ ما الذي يقلقكم أكثر: أن يوجد أناس في هذه البلاد تعامل كالكلاب ولا تستطيع أن تحيطكم علماً بذلك، أم أن شركات التأمين لن تعوضكم سعر المرسيدس كوبيه التي أحلناها بعنف إلى هيكل متفحم؟

تعرفون بأننا نجمع قذارتكم، وأن الكثيرين منا لم يجدوا فرص عمل أفضل من الاهتمام بجمع القمامة. ويجدر القول إنه للقيام بمثل هذا العمل الجليل من المفيد أن تعطى الأولوية استثنائياً إلى المهاجرين.

Twitter: @ketab_n

لا شك في أنكم تعترفون لنا بمهنيتنا العالية في هذا المجال. فمن غيرنا كان ليقبل أن يفرغ قمامتكم كل صباح؟ ومن الملاحظ أنكم في مثل هذه الحالة لا تعودون تعيرون اهتماماً لموضوع الشرعية، فأنتم تعلمون جيداً بأننا لا نملك أوراق إقامة أو ننتحل شخصيات مختلفة، لكنكم تفضلون أن تتعاموا عن هذا التفصيل. على كل حال أنتم ترون أن جميع السود متشابهون ويستخدمون جميعهم تقريباً الأسماء نفسها، أليس كذلك؟ زد على ذلك سؤالاً: من غيرهم يرضى بأن ينحدر إلى مستوى برازكم؟

اعلموا بأنه غالباً ما يخفي التواضع نوايا سيئة. التواضع شبيه بالتمرد، فهو يستمد قوته من الإهانات الموجهة إلى صاحبه. سيارات القمامة التي تدور في شوارع باريس تحمل معها أيضاً ثورة صبورة تنتظر الفرصة السانحة لتندلع. المعنى الأزلي للثورة هو الانعتاق من العبودية. فلا تظنوا أن الأعمال التي تخصوننا بها هي مجرد نوع من الاستغلال، لقد تعرفنا عليكم عن كثب ونحن نفرز قمامتكم، قمامتكم تخبرنا عن خفايا حياتكم، عن مدى سوء حال أحشائكم، وعن الأشياء التي تدمنون عليها.

تُحاكمون على حاجتكم إلى أن يكون تحت تصرفكم أناس معدومون كي يقبلوا بالأعمال المضنية التي تكلفونهم بها. عندما تخصوننا بالعمل بفضلاتكم يعني ذلك أنكم تساوون بيننا وبينها. نحن الجزء الذي يهمل في حياتكم، ذلك الذي يتم التخلص منه. ذكرونا بكلام الكتاب المقدس: «نحن حتى اليوم فضلات العالم وما يثير اشمئزاز كل الناس.» وعلى هذا الشكل يستحيل الشيء الذي لا يريده أحد إلى خطر.

انظروا سيداتي وسادتي كيف يجتاح اللهب شوارع المدينة، وكيف

Twitter: @ketab_n

يقذف بألسنته البرتقالية والحمراء والصفراء نحو السماء. هنالك القليل من اللون الأزرق أيضاً ومن الأخضر الحنون الذي يشع على شكل خيوط حين تشتعل بؤرة نار جديدة، إنها أشبه بألوان ذيل طاووس يلف سماء باريس. هذا اللمعان المنعكس على تلافيف واجهة نوتردام، هذا الشعاع المبهر الذي تتراءى من خلاله فجأة وبوضوح أشكال الأسطحة والقبب والصحون اللاقطة، والذي يُبرز الانتصاب الفظ لأبراجكم ومسلاتكم، يبدو مثيراً للذعر كما لو أنه كشف الستار عن الكابوس الذي كان يخفيه فن عمارتكم. وارتأيتم أن تنسبوا الهدير المضيء في كاتدرائياتكم إلينا نحن المجرمين كي تحموا أنفسكم منه، ذلك أنكم تخافون على أمنكم وتريدون أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه. تعتقدون من دون شك بأن غضبنا سيزول وبأن جميع المتظاهرين سيتم إيقافهم، لكن لا شيء سيعود إلى الحال الذي كان عليه ولن يتم توقيفنا فنحن لا نشبه تماماً ما يسمى بالمتظاهرين. اطمئنوا، سنحرص بتهذيب، تعلمناه منكم، على أن يصبح التواصل بيننا مستحيلاً.

وجودنا لا يسبب لكم أية مشكلة، أبداً، وتكذبون عندما تؤكدون عكس ذلك. تدبرتم أمركم دائماً لتتابعوا حياتكم كما لو كنا غير موجودين، لدرجة أن عدم وجودنا أصبح، من سنة إلى أخرى، أكثر اضطراداً، لدرجة أنكم الليلة تحصدون ثمار العدم الذي كنتم ترونه فينا.

صحيح أننا لم نجد طريقة أخرى لنتوجه بها إليكم سوى حرق سياراتكم، فقد كان من المستحيل أن يصل كلامنا إليكم في حين أنكم لا تستمعون إلى أحد. لذلك، ها نحن الآن بدورنا خارجون عن السيطرة.

Twitter: @ketab_n

تابعوا التصرف كما لو أننا غير موجودين. لا تهتموا بالسياسة، عندها ستعرضون أنفسكم لتلقي ضربات، حتى لو كان كل ما فعلتموه في حياتكم وما نظمتموه لما تسمونه برنامجكم كان يهدف تحديداً لئلا يصيبكم شيء، وخصوصاً الضربات، فأنتم تفضلون توجيهها لا تلقيها.

ليس الظلم وحده ما نريد أن نكلمكم عنه، بل عن عالم يتهاوى، عالمكم. كاميراتكم تصورنا في كل زوايا الشوارع وفي مداخل الأبنية وفي مواقف السيارات، وفي أصغر متجر، وتتعاون فيما بينها لئلا يفوتها شيء، الفراغ والغياب وربما أيضاً الموت، كلها يجب أن تكون مسجلة عقارياً. لكن ماذا ترى هذه الكاميرات؟ لا شيء. بلى ربما، إنها ترى حيوانات، من اليحمور والجديان والظباء والضباع والأرانب والفهود والقرود والثعالب والتماسيح والزواحف وأبو بريص، كل هذه الحيوانات البرية ذات الخطوم المخيفة، الحمراء والسوداء بألوان الحركة الفوضوية، والتي تحيط بها ألياف تتموج كياقات بلون الدم.

نعم، نحن نرتدي أقنعة، إنها تحيط غيابنا بهالة. وعندما نضعها نصبح كأننا لسنا موجودين عملياً، فإذا ما رحتم تضربون إحداها أو حتى لو أوسعتموها ضرباً، فلن تجدوا سوى بخار أو بودرة أو نشارة من خشب النخيل. من يرتدي قناعاً لا يكون موجوداً إلا من خلاله، عليكم أن تحرقوه إن أردتم أن تجدوا صاحبه، الأمر الذي لم تفكروا فيه. كيف يمكن لكم بكل الأحوال استجواب قشرة من خشب؟ لن تجدوا شيئاً طالما أنكم مصرون على البحث عنا خلف أقنعتنا. لقد تدربنا على التعامل مع عدمنا، أليس هذا ما علمتمونا أن نفعله؟ لكن هذا العدم لم يقلص

Twitter: @ketab_n

من قدراتنا، بل على العكس. لقد استوعبناه لدرجة أنه بات من الصعب العثور علينا.

إن روعة جمال الصباح على حشائش مروجكم القزمة، هي نحن.

بخار الماء الذي يتسلى أطفالكم به على زجاج النوافذ، هو نحن.

الابتسامة التي ترتسم على وجوههم عند مشاهدة الغبار المتطاير ضمن شعاع نور، موجهة إلينا.

في عالم الأقنعة، يمكن للطيور القمرية التي تغني ألحان النصر، أن تستوطن حقلاً غمرته الثلوج. ويمكن للدم المتدفق بسهولة من كلمة تنبثق منها الحياة بقوة، أن يهز أركان البدهيات. إن الأسلاك الشائكة وعصي الشرطة والأكبال وقنابل الغاز المسيل للدموع تفعل فعل كلمات مشطوبة على ورقة، إنها فائضة عن حد الورقة ولكن من المستحيل إلغاؤها. وبمعنى ما هي التي تعطي لمعركتنا الزخم الذي نتوجه به إلى المعركة.

الأقنعة التي نضعها تعود في أصلها لشعوب الدوغون في مالي. يعرضونها في احتفالاتهم التي يعيدون فيها تمثيل ولادة الكون. سنة شعوب الدوغون هي الولادة من جديد، وهو لا يكبر ولا يتقدم بالعمر ليصير كهلاً، هو موجود بكليته وبدون أية حواجز في عالمه وفي كل لحظة، مزود بكل الملكات التي أعطته إياها آلهته. الزمن بالنسبة إليه هو طقس يتم حسب رضى أو غضب الأرواح التي تسكن جسده. إنه متعود على العيش في شقوق الصخور الرطبة، وعلى المنحدرات المسكونة بالشياطين

Twitter: @ketab_n

التي يستمع إليها ويتحداها ويتعبدها. يرى وجوده كصيد روحي يستدعي أن تكون يقظته دائمة وثورته تامة.

إن وضع الأقنعة لا يهدف إلى الاختباء بل إلى جعل انفصالنا طقساً، لا شيء يربط بين عالمكم وبيننا. وبما أننا نرغب، عبر التوجه إليكم في هذه الليلة والكشف عن وجودنا، في أن نخلط الأوراق، اعلموا بأننا لسنا جميعاً من أصول مالية ولا من المنحدرات حيث وجد الدغون مستقراً لآلهته، ولسنا كلنا من أصول إفريقية، وربما لسنا جميعاً سود البشرة.

ليس هذا هو المهم. نحن من اخترنا أن نكون ذوي بشرة سمراء وإفريقيين ودوغون، فما من أحد بالنسبة إلينا أنبل منهم. بالنسبة إلينا كأفراد يعيشون في قلب العالم الغربي، الذي يتهاوى، أن تكون أسود وإفريقياً وتنتمي إلى شعب الدوغون لهو أمر نبيل.

من نحن؟ هذا هو السؤال الذي يؤرقكم. لا تفكروا في أن تطلبوا منا أوراقنا الثبوتية، تذكروا أن الأوراق الثبوتية هذه، هي تحديداً ما رفضتم أن تعطونا إياه. بالنسبة إليكم وضعنا هنا غير شرعي، الأمر الذي لا يمنعكم من أن تستغلونا في خدمتكم.

من نحن؟ قبل كل شيء نحن من تسمونهم الأجانب. وبالفعل نحن غريبون. ألهذا السبب لا تسمعون نداءاتنا؟ أتذكرون هذا القول: «أحبب الغريب كما تحب نفسك فقد كنت أنت غريباً». أم أنكم تعانون من صعوبات في الذاكرة؟ صممكم ليس في حاجة إلى حجة غياب، فهو منذ الأزل سلاحكم الأمضى، والأكثر برودة من كاميرات المراقبة، والأكثر قسوة من قواعد بياناتكم، والأكثر فعالية من جهاز شرطتكم.

Twitter: @ketab_n

لأن صممكم لا يحتاج إلى لتبرير ما يكذبها. إنه يقوم بذلك من تلقاء نفسه. حرية ومساواة وإخاء؟ لا تثيروا ضحكنا. تحركنا لا يهدف سوى إلى إظهار كم هي مزيفة وكم هي كاذبة هذه الكلمات الثلاث. صمم وصمم وصمم. هذا هو شعاركم الحقيقي.

***

بدأ كل شيء في الصباح الذي أخرجنا فيه الأقنعة، قبل الفجر ودون أن يرافق الأمر أي كلام، كما يتم الأمر في الحداد. اتفقنا أن نلتقي تباعاً على طول خط مسيرنا الذي ابتدأ من مترو «تيلغراف» في أعالي باريس في الدائرة العشرين، نزولاً إلى محطة «كورون» حيث حددنا مكان تجمعنا الأول.

الكثيرون منا كانوا قد اجتمعوا في أعلى التلة، بالقرب من خزانات مياه «بيلفيل»، كونهم علموا بأننا سنقوم بحمل جثماني رفيقينا اللذين اغتالتهما الشرطة. كانوا يودون أن يكونوا جزءاً من المحزونين، أولئك الذين يحملون المحفة المصنوعة من خشب التين ويعيدون سرد الحياة السرية للميت من خلال البكاء.

هذه البكائيات، وعلى كل واحد منا أن يستقيها من داخله، تطفئ ظمأ الشخص الذي رمى بنفسه من المنحدر للتو (الميت الذي انتقل إلى مكان آخر). تطفئ ظمأ شخص من الدوغون توفي للتو، على بكائنا أن يكون غزيراً، لكي تتمكن عظامه من أن تطفو على انسياب غنائنا، ولكي تتحول روحه إلى شرارات وتدخل بذلك تاريخ الإشارات

Twitter: @ketab_n

الخاص بشعبنا. على الكلام أن يكون رطباً، فالكلام هو ما يروي سهول الدوغون وحقول الحبوب والفستق السوداني والقطن. الدموع هي من دون شك اللغة الأكثر حيوية، فهي التي تروي أجسادنا الجافة وتبعث الخصب فيها من جديد.

بكينا هذا الصباح فيما نحن ننزل شارع «كورون» والذي بانحداره الشديد يشبه الطريق المؤدي إلى القرية المالية «اوغول دو با»، ننقل على المحفة جثتي رفيقينا عيسى وكوريه. لا تدل الدموع على الانفعال فحسب، بل هي رسالة نبثها إلى عالم الموتى، فجريانها يفتح الطريق ويسهل انتقال المتوفى إلى العالم الآخر. بحسب طقوس الدوغون، الرقص والغناء يرافقان الجنازة، من خلالهما نحتفل ليس بالشخص المتوفى حديثاً فحسب، بل بجميع الموتى. إن مواطن الدوغون يتحد عند موته بجميع الذين سبقوه في الوجود. الموت هو ولادة معكوسة أو بالأحرى ولادة من جديد.

لكي يستطيع الميت أن يدخل عالم الأموات، علينا أن نأخذه إلى المكان الذي انهار فيه المنحدر. وبما أن عيسى وكوريه ماتا غرقاً في نهر السين نتيجة ملاحقة الشرطة لهما، فلقد توجهنا هذا الصباح إلى مركز مدينة باريس، إلى المكان الذي تتفرع منه قناة «سان مارتان»، هناك بالضبط في النقطة التي لقيا فيها حتفهما وهما يهربان من الشرطة.

طقوس الحداد هي عبارة عن نضال يتطلب استحضار إنجازات ومخاوف حياة الشخص الميت. البعض منا وضع تحت إبطه طبلةً على شكل ساعة رملية، يضرب عليها إيقاعياً لكي تتبع خطواتنا هذا الإيقاع.

Twitter: @ketab_n

أجسادنا التي تشذبت بالموت كانت تعيد تمثيل مشاهد الصيد، وكانت تتقاطر تكريماً لأخوينا اللذين كانا مثلنا يعرفان ما هي روح الظباء والضباع والحيوانات المفترسة والأسود التي كان أجدادنا يصطادونها بالقوس والنشاب.

لم يعترض أحد موكبنا من «بيلفيل» حتى «ريبوبليك»، ولا حتى سيارات الشرطة التي كنا نصادفها في طريقنا. ممنوع في فرنسا ارتداء الأقنعة في المكان العام، لكننا لم نكن في البداية كثيرين، كنا نمشي بانضباط على الرصيف، فلا بد من أن رؤيتهم للأموات على المحف - في الحقيقة كانا مجسمين مرسومين على شكل رفيقينا الميتين - بددت شكوكهم حولنا، إذ ليس لديهم مشكلة مع هذا النوع من الفولكلور.

توقف موكبنا لما وصلنا إلى ساحة «ريبوبليك» وقمنا بوضع المحف على الأرض، تحت شجر الدلب، في المكان الذي ينصب فيه المشردون خيامهم في الشتاء.

عند أقدام التمثال البرونزي الضخم الذي يرتدي رداءً رومانياً ويحمل في يده غصن زيتون، بدأ البعض منا بترديد هذه الغنائية:

يانيين او جامورو اويي

ها هي حصتك أيها الميت.

وبما أن الميت لا يكون وحيداً أبداً، وبما أنه بموته يحيي جميع الأموات الآخرين، بدأنا بالغناء لجميع الموتى:

نيبا ياوو جامورو ايوي

ها هي حصصكم أيها الموتى

Twitter: @ketab_n

بقينا بلا حراك لعدة ساعات مجتمعين أسفل التمثال. انضم إلينا أصدقاء قاموا بوضع الأقنعة التي قدمناها لهم، ورحنا نرقص رقصاً خفيفاً كموجة بحر تخفق وتتمايل على إيقاع الطبول.

فضوليون من المارة احتشدوا حولنا بصمت لمشاهدة حركاتنا البطيئة. قدمنا للبعض منهم نسخاً عن أقنعتنا منحوتة على خشب خفيف. كما وزعنا أقنعة من كرتون تمثل بالنسبة إلى المتعاطفين معنا عالمنا الأحمر والأسود.

نصبنا حول قاعدة التمثال الأبواب التي صنعناها من ألواح خشب طولانية كانت تستخدم كأبواب للشونة. لكل باب مصراعان، المصراع الذكري والمصراع الأنثوي، يجمعهما مفصل من الجلد. ما بين المصراعين هناك قفل على صورة بطن امرأة ينتظر المفتاح المناسب لفتحه.

كنا قد رسمنا على الأبواب صور الأجداد بجسد مقوس، وأيدٍ مرفوعة، كانوا يعتمرون قبعات مخروطية الشكل، ولكل منهم لحية وأثداء. فهو رجل وامرأة في آن معاً، ينتظر بطنه البارز الطقس المكرس له.

شريط متموج يحيط بملبن الباب ويوحي بحركة الماء، وهو علامة عن الجدول الذي ينبع بحلول وقت الحصاد، وهو الذي أشعل هذا الصباح حركة الكلام التي كانت محبوسة في حناجرنا. كلامنا هذا نمضغه كورقة قات. وهي تأخذ شكلاً تباعاً، لعابنا هو الذي يعطيها الشكل الذي ستكون عليه.

وقريباً، حين تبدأ حركتنا بالتوسع، وتبدأ أيادينا وأرجلنا بالتحرك على إيقاع المسير العسكري الذي سيجعل أرض ساحة «ريبوبليك»

Twitter: @ketab_n

تزمجر من تحت أقدامنا وأقدام المتفرجين المقنعين، ستنطلق الصرخة من أفواهنا.

هي صرخة قصيرة للثعلب الشاحب.

انطلق رف من الحمام محلقاً فوق رؤوسنا كما لو أنه خرج من فم الثعلب، وذهب ليستقر على أغصان شجر الدلب.

ومن ثم، سفكنا دم عنزة دون أن يلاحظنا أحد، في الأماكن التي كنا متواجدين فيها حول الساحة، لتبدأ الطقوس السحرية بالتلويح بأخشاب الرومبا.

تشبه أخشاب الرومبا منشاراً طويلاً مؤلفاً من صفين من الأسنان. الذي يمثل، في نظرنا، أسنان الأفاعي أو فكوك التماسيح. ويقال إن هذه الأدوات السحرية قد صممت على شكل لسان متدل لرجل مسن، في نهايتها ثقب يثبت فيه حبل التدوير.

الدم الذي يسيل من نحر العنزة يرسم حول صرحكم الوطني قناة دقيقة من الدماء تبحر فيها أرواحنا، الضوء ينعكس على الدم، فنرى صورة أقنعتنا المائلة نحو الأرض. وتأثيرنا سيصل عبر هذه القناة، عبر هذا الجدول النحيل الذي تبحر فيه منذ الآن شرورنا. هكذا سيُضخ الدم في عروقنا وتنتفخ رئاتنا باللعنات وتكبر اليوم ساعة بعد ساعة قوتنا.

لأخشاب الرومبا حصتها من الدم أيضاً، نمسحها به لتكتسب العنف الذي يضفيه الحداد على كل حركة من حركاتنا. وفي اللحظة التي أدار فيها جمعنا الأقنعة لتقابل وجه تمثال «الريبوبليك»، الذي تلفحه شمس صباح باريس الشاحبة، وبينما كانت السيارات تدور حول

Twitter: @ketab_n

الساحة، وقامت حمامة بالتغوط على القبعة الثورية التي يعتمرها جسد التمثال كتمجيد للثورة الفرنسية، بدأ حاملو الرومبا بتدويرها معطين إياها هيئة السوط، فالحبل الذي نلوحها به كان بطول ثلاثة أمتار.

حركة التدوير التي كان يقوم بها الملوحون بالرومبا كانت من العنف بحيث أنها بدت تفكك الفضاء، كما لو أن روحاً بدأت تدور حول نفسها. إن سرعة الدوران كانت متغيرة، ومع تغير سرعة الدوران يتغير الصوت الذي تصدره الأخشاب فيصبح بتفاوتاته شبيهاً بزئير أسد.

تغيرت ملامح ساحة «ريبوبليك» من جراء الإيقاع المزدوج لصوت الرومبا الذي كان يلف عالمكم حول محور دورانه، ولصوت الغناء المكتوم التي كانت تصدح به حناجرنا، إذ علينا أن نصل لسرعة وعمق يتجاوزان تلك التي تتمتع بهما المادة التي نسج منها عالمكم. فلكي نستبدل عالمكم بعالمنا، علينا أن ننتصر، عبر الصلاة - والحرب التي تقتضيها - على النسيج المتشابك الذي يرسم لحظة بعد أخرى حكاية أجسادكم وأفعالكم. عبر الدم والكلام ودوران الرومبا، نستطيع أن نتدخل عبر نقطة محددة، ومن الصعب تحديد مكانها بدقة، حيث يتشكل عالم ويتفكك في اللحظة نفسها. خطؤكم الأكبر كان بالاعتقاد بأن التقنيات ستجعل العالم الذي تبنونه محصناً. عالمكم مرتبط، كما كل شيء موجود على هذا الكوكب، بنقطة ضعف، ليس في استطاعته سوى ترقيعها، عالمكم ضعيف بمقدار ما هو ضعيف في قرى «بورو» أو «سونغهاي» البدائيتين.

انظروا إلى الصدع الذي ارتسم على أسفل قاعدة التمثال، والذي يزحف متعرجاً نحو أرجل جمهوريتكم ليدخل جسدها من حفر النمل

Twitter: @ketab_n

الأبيض الذي يأكلها من الداخل. أسيأكل البرونز ويبتلعه كما تبتلع الكوبرا فرائسها المرتجفة؟ لا ترتبط المقاومة التي يبديها إله أو آلهة بالأبهة التي ترافقه ولا بالأسلحة التي يعتد بها ليثبت أركان حكمه. سواءً أشئتم ذلك أم أبيتم، نسيتم أم تناسيتم، إن جمهوريتكم هي آلهة مثلها مثل أي آلهة، ربما علمانية، ولكن ما الفرق؟ طرق التعبد لا تهم كثيراً، ما يهمنا هو ضرورة الاستعانة برعاية إله وبالمعونة التي يقدمها لحيواتنا.

اكفهرت السماء بظلال سوداء وحل الظلام في غضون عدة ثوان. في خلال هذا الفاصل، قمنا بإخراج المفاتيح وفتح الأبواب. حين عاد النور من جديد كان التمثال قد اختفى وحلت محله شجرة تبلدي ضخمة.

تركت الطيور أشجار الدلب، كانت تصفق بأجنحتها التي تلف المكان بضياء وردي اللون، وها هي تحط على أغصان الشجرة التي ظهرت للتو.

ها نحن قد زرعنا شجرة عوضاً عن تمثال آلهتكم. لقد سرقنا جمهوريتكم.

بدت شجرة التبلدي كما لو أن صاعقة ضربتها، فأغصانها العارية ارتفعت نحو السماء كأنها باقة. انظروا كيف أن جذورها انتصبت فوق جذعها كما لو أنها تنمو عكس الطبيعة. التبلدي هو شعارنا، فهو يرمز إلى روعة إفريقيا التي ستنتشر في قلب المدينة، بعزلتها، والسيادة التي تشفي جراحها.

أتعرفون ماذا كنا نقول: «سيمبر اليكيد نوفي افريقان ادفير»، ما معناه: إفريقيا تقدم دائماً شيئاً جديداً. نعم سيداتي سادتي، وهذه الجملة

Twitter: @ketab_n

كتبها بيلينيوس الأكبر، وهي مستقاة من أرسطو. الشيء الجديد الذي تقدمه إفريقيا اليوم وعبر أصوات الثعالب الشاحبة، هو الثورة.

لا، لم يخنكم سمعكم: الثورة. اعترفوا بأنكم لم تعودوا تسمعون هذه الكلمة، ظننتم أنفسكم هانئين وبمنأى عن سماع الكلمة الرنانة، فقد فعلتم كل ما في وسعكم كي لا تظهر في خطابنا. أليس أولئك الذين، عبر فشلهم المتكرر، وعلى الرغم من كل احتياطاتكم، بقوا مصرين على التلفظ بها لسنوات، هم ذاتهم الذين ساهموا في إفساد الوعد الذي تحمله هذه الكلمة.

انطلق موكبنا باتجاه ساحة «الباستيل» عبر بولفار «دو تامبل». كنا نتقدم ونحن نمشي بشكل معاكس ظهرنا إلى الأمام كما يستدعي «الطقس» المخصص لمواجهة الأعداء. بما أننا كنا نسير باتجاه المكان الذي قتلت فيه الشرطة عيسى وكوريه، فقد أدرنا ظهورنا له، فنحن نحيا في عالم معكوس، مناقض تماماً لعالمكم، ولا يخضع لقوانينكم بل لقوانين الأقنعة. صعدنا الشارع على هذا النحو ونحن نتراجع إلى الخلف، يرشدنا في السير اثنان من رفاقنا غير ملزمين بتطبيق الطقس، كانوا يرشدوننا بصوت عال، يعلنون متى علينا أن نبطئ أو أن نلتف على عائق أو أن نتوقف. كان المارة المندهشون يتركون لنا الحرية الكاملة في استخدام الأرصفة.

هذه الطريقة في التنقل يمكن أن تبدو شيطانية، وهي كذلك. ذلك أننا نرى فيها وسيلة للانعتاق من شياطينكم، ورفض منطقكم، والتحرر من سلطتكم، وتفنيد ادعاءاتكم الديكارتية (العقلانية). النقطة الأهم

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إلينا هي أن نتفادى لقاءكم، مستوحين قول شاعر فرنسي، وهو لم يكن يحبكم: «ليس لديّ من مجتمع بديل عن مجتمعكم، فهذا الأمر ليس من شأني».

هل مشيتم بشكل معكوس من قبل؟ بعد المتعة التي ترافق الأمتار الأولى ينتابكم الإرباك، فالاتجاه الذي تحديتموه يعود ليرتد عليكم كعصا ارتدادية، ينتابكم الدوار وتفقدون التوازن ومن ثم تسقطون أرضاً.

ولكي نبقى متصببين، كنا ننشد الأغنية، إن كلام الثعلب الشاحب له طابع غنائي ولكنه ليس عذباً، الصراخ الذي تبدأ به الأغنية يضمن استمرار العنف، إذ أن كل صرخة من صرخاتنا تمتلك قسوة فك. على الرغم من كل تلك القسوة، كان كلام الثعلب الشاحب سلساً، يندفع متموجاً من حناجرنا. صوت الثعلب الشاحب متعرج يخط فينا طريقاً أفعوانياً ملتوياً: كل خطوة تعيد إلينا الاتزان الذي فقدناه في الخطوة التي سبقتها. الفوضى، كما تعلمون، هي التي تعبر عن نفسها من خلال كلام الثعلب الشاحب ومن خلال الغناء الذي نؤديه. فمنذ أن قطع كل ما يربطه بعالم البشر، يعود الثعلب دائماً، منذ أن تحول إلى حيوان، إلى العالم الذي نفي منه كي يثير فيه الاضطراب.

كلامه لا يكتفي بالدوران في حناجرنا كدوامة أو كمخدر يغير ملكاتنا، بل يعتقنا أيضاً من باقي اللغات ويشتت تأثيراتها فينا. لقد تعلمنا في مخابئنا وعند حُماتنا أن لا ندع لمقاطعكم اللفظية ولتعليماتكم ولتصوركم عن العالم أي تأثير فينا، لقد حرقنا، عبر تدريب قائم على الصبر والازدراء، أي منعكس يجعلنا نخضع لكل ما هو مفروض.

Twitter: @ketab_n

لقد تعلمنا لغة جديدة، لغة تغزونا حين نمشي بالعكس وتمنعنا من أن نسقط مغشياً علينا. ننطق بهذه اللغة وأفواهنا مطبقة، إذ أنها تمتمة. تفعل فعل التمتمة التي تصدرها الرومبا، تُخرج من بين أسناننا ألحاناً قاسية، مليئة بالأشواك، ومترفة في آن معاً.

مهمة هذه اللغة السرية التواصل مع عالم الأموات، وهي تستنفر كثافة الأدغال لتلبسنا روحها. هناك ومضة ضوء تنطلق عندما نتكلم لغة الثعلب الشاحب المقدسة، إنها تربط بين كلامنا وعالم الأموات، وتدفعنا إلى حدود المنحدرات. ها نحن الآن على قمة إحداها نضع قدماً في عالم الأحياء وأخرى في عالم الأموات.

ما من شيء يشبه الدوار الناتج عن هذه التجربة إلا ذلك الذي تسببه ربما عملية تغيير الجنس. فالرجل الذي يتحول إلى امرأة أو المرأة التي تتحول إلى رجل، يختبران السقوط في هوة من اللذة التي تتأتى من انفصالهما عن باقي أفراد جنسهما، لذة ليست إلا تاجاً يلبسه من استطاع تجاوز الحدود بين العالمين.

ازداد عدد المشاركين في مسيرتنا. انضمت إلينا بعض الجمعيات التي تساعد المهاجرين غير الشرعيين، ممن كانوا يعرفون عيسى وكوريه اللذين اضطرا إلى اللجوء إليها خلال مسيرتهما الطويلة بحثاً عن المشروعية، فقد كانت هذه الجمعيات خبيرة بدقائق الأمور البيروقراطية.

انضم إلينا أيضاً مهاجرون غير شرعيين آخرون قدمنا لهم أقنعة، وأصدقاء ممن يدعمون القضايا التي لا ترون فيها سوى تحريض في حين أنها كانت السبيل الذي يجعل بقاءنا ممكناً.

Twitter: @ketab_n

اكتظت أرصفة الشوارع المؤدية من ساحة «ريبوبليك» إلى ساحة «الباستيل» شيئاً فشيئاً، فتدخلت الشرطة بغية اعتراض تقدمنا. على الرغم من أننا كنا لا نحمل لافتات ولا نهتف بشعارات ولا نشغر الطرقات، لا شيء في سلوكنا يدل على أننا كنا نتظاهر، إلا أنهم أرادوا التحقق من هوياتنا، فلقد اعترتهم الريبة لرؤيتهم الرفات التي كنا نحملها.

تدخل مسؤولو «لجنة التنسيق من أجل مساعدة الأجانب» وشرحوا للشرطة بأن الأمر لا يعدو عن كونه حفل تأبين، وبأننا في طريقنا لإحياء ذكرى أصدقائنا في المكان الذي لقوا فيه حتفهم، فما من قانون يمنع تحرك مجموعة من الأفراد في الشارع طالما أنهم لا يتظاهرون.

هذا الكلام لم يقنع الشرطة. فلقد كنا، بالنسبة إليهم، أكثر عدداً من أن نصنف كمجموعة من الأشخاص، وحتى لو لم نكن نعرقل السير في الطرقات العامة، أو نحمل شيئاً يدل على أننا نتظاهر، بالمعنى الحرفي للكلمة، فإن تجمعنا مزعج للمارة. كما أن اللباس الغريب المثير للشبهة الذي كنا نرتديه والغناء الذي تصدح به حناجرنا منذ قليل في ساحة «الريبوبليك»، كلها أمور كانت غير مقبولة وتدل على أننا نقوم بعرض، الأمر الذي يتطلب الحصول على تصريح مسبق. لو كان موكبنا جنائزياً كما ندعي، لكنا أقل استعراضية، ولكن بالنظر إلى الطريقة التي كنا نتنقل بها، فإن ما نفعله يدفع إلى الاعتقاد بأننا لم نكن نحترم حصافة الموقف، بل نرغب على العكس في أن نثير الانتباه وربما أن يُسمع صوتنا.

كنا مستغرقين جداً في احتفاليتنا، لا مجال أمامنا للتوقف. أثناء تقدمنا البطيء إلى ساحة «الباستيل»، قام الراوي الذي لم يكن يرتدي قناعاً

Twitter: @ketab_n

بإشهار أوراق ثبوتية استعارها من أولاد عم أو أخوة أو أصدقاء مقيمين بصورة شرعية. عاينت الشرطة الأوراق ولم تقم بمزيد من التدقيق ولم تطلب منا نزع أقنعتنا. تراجع رجال الشرطة إلى سياراتهم واكتفوا بمراقبتنا عن بعد، بعد أن طلبوا منا ألا نشغل الرصيف بأكمله. لكن من الجلي أنهم قاموا بالإبلاغ عن تجمهرنا وأنهم كانوا ينتظرون الأمر الرسمي بالتدخل.

واصلنا التقدم حتى ساحة «الباستيل»، ثم سرنا بمحاذاة قناة «سان مارتان» حتى وصلنا الحفرة عند أبنية مرفأ «باريس أرسنال». الحفرة محاطة بجدار يلتوي بحدة في المكان الذي قفز منه عيسى وكوريه عند نهر «السين».

تعود أصول البعض منا إلى الصحراء، إلى تلك الصحارى البركانية التي تشكل الصحراء الكبرى، والتي يضفي اسمها أنفة حادة على أجساد مواطنيها: صحراء «العير» في نيجيريا، صحراء «الاينيدي» أو «تيبيستس» في تشاد، صحراء «الهقار» في جنوب الجزائر، والأجمل والأكثر تقشفاً صحراء «أدرار ايفوغاس» في مالي. عندما تكون من سكان الصحراء، تبحث دوماً عن شفافية قادرة على تبديد قساوتها، ترتحل إلى حيثما يكون هناك ماء. عالم الصحراء لا يمكن استئناسه، هواء بارد يلفح دائماً الغني كما الفقير ويجبره على الكفاح. ما من استقرار في الصحراء، ما من منزل وما من أصول، ليس هناك سوى الكفاح، والكفاح يعني الكلام.

هذا ما يفسر لماذا توجه عيسى وكوريه، أثناء هروبهما، نحو الماء، كما يفعل الملايين من الرُّحَّل كل يوم. توجها إلى نهر السين لكنهما لم يكونا

Twitter: @ketab_n

يعرفان السباحة. في تلك اللحظة كان نحو ثلاثة أو خمسة أفراد من الشرطة يلاحقونهما لمدة ساعات طويلة. علمنا أيضاً بأن كلباً بوليسياً ألمانياً كان مع المجموعة التي لاحقت عيسى وكوريه اللذين رميا بنفسيهما في الماء من شدة الإنهاك والذعر من الكلب البوليسي، رافعين أيديهما نحو السماء متضرعين.

يقال أيضاً بشكل غير علني إنه عبر رفع اليدين نحو السماء، كانا يحاكيان تماثيل «دجينينكي»، فرفع اليدين نحو السماء يمد جسراً يصلهما بعالم الأرواح. لم يكن قفز عيسى وكوريه في نهر السين استسلاماً، بل إشهاراً لاختلافهما.

تعرض عيسى وكوريه للطرد عندما وصلا أول مرة إلى فرنسا. بالكاد وطأت أقدامهما أرض مطار «رواسي» حتى قامت السلطات بترحيلهما. تدبرا أمرهما بعد ذلك، كما أغلب المهاجرين، وعبر الاستعانة بمهرب، سلبهما كل ما يملكان مقابل عبور البحر المتوسط على متن قارب متهالك يقوم حرس الحدود الفاسد بتوجيهه إما إلى «مرسيليا» أو إلى جزيرة «لامبيدوزا». هناك يقوم حرس حدود آخرون بتوصيل اللاجئين إلى صندوق الحافلة التي ستهربهم.

لقد اختبرا في ترحالهما التكدس كالغنم في مراكز الإيواء حيث تأتي المافيات المختصة لتجند عبيدها، وعرفا أيضاً التيه على الشواطئ الفرنسية والإيطالية التي كانا يقطعانها بحثاً عن مشترين لحقيبة من نوع «فيتون» أو من نوع «برادا» يقايضونها بأجرة مبيت ليلة في بيت متهالك، وعرفا الاستيقاظ فجراً لركوب شاحنة التهريب المحملة بالبضائع والتي

Twitter: @ketab_n

تتوقف فقط لكي تسمح لهما بالتنفس في مراسي سفن الشاطئ الأزرق، «ليغوريا»، «توسكانيا» أو «كامبانيا».

نجح عيسى وكوريه في نهاية المطاف في تأمين سكن لهما في نزل «بارا» في ضاحية «مونتروي»، بمساعدة والدهما. كما نجح مؤازروهما عبر التفافات عديدة، منها الرشوة، في الحصول على عمل لهما كعاملي نظافة في الشركة المسؤولة عن نظافة مدينة باريس، بانتظار أمل واه بتسوية وضعهما. إلا أن تأخر هذه التسوية أصابت الاثنين باكتئاب شديد قيدهما كما تقيد شبكة العنكبوت ضحاياها في حكايات الأطفال.

وكما يحدث في أغلب الأحيان، رفض مكتب حماية اللاجئين والمشردين (أوفرا) طلبهما بالحصول على حق اللجوء، كما رُفض طلب الاستئناف الذي قدماه. ثم بعد ذلك فقدا وظيفتهما كعمال نظافة ومرضا ليعيشا حياة عزلة، لا يخرجان من المنزل إلا للضرورة القصوى تحاشياً من الخضوع لتدقيق الهوية. كانا يعتاشان من أعمال مؤقتة، غير مصرح عنها كما تسمونها، لا تدوم سوى أيام قليلة.

قصتهما تلخص حال مئات الآلاف من اللاجئين الذي يتحدّون الحدود. لا لشيء سوى أن البؤس الذي هم مستعدون لمواجهته في أوروبا يبقى أقل سوءاً من ذلك الذي سيتعرضون له في حال بقوا في بلدانهم الأصلية. عيسى وكوريه لم يأتيا إلى فرنسا لكسب المال وإرساله إلى عائلاتهم فحسب، في منطقة «الكيي»، لقد هربا من مالي لأنهما رفضا الانضمام إلى العصابات المحلية هناك، الأمر الذي يعتبر كحكم بالإعدام.

بعد موتهما، وجدنا في حوزتهما قصاصات، محفوظة بغلاف بلاستيكي،

Twitter: @ketab_n

من الرسالة الملعونة التي تطلب منهما مغادرة الأراضي الفرنسية، تلك الرسالة (أمر مغادرة الأراضي الفرنسية) التي نعرفها جميعاً والتي تقع علينا حين تصل كالفأل السيئ.

إذا أردنا التخلص من هذا الفأل وتأثيره اللعين، علينا تمزيق الرسالة بعناية إلى قطع صغيرة وتمريرها فوق مصدر حراري لا يحيلها رماداً بل يمتص محتواها. تحترق أطراف الرسالة، تبدأ بقع بنية اللون بالظهور عليها فتصبح شبيهة بالخشب ويتجه التأثير بعيداً.

يتطلب فك السحر المتمثل بالطرد الإداري دقة يمكن أن تبدو لكم ضرباً من الجنون، لكننا نستعين بها لأن الطقس عندما ينفذ بحذافيره كاف لأن يثبط ولو بمقدار ضئيل النظام القائم على البغضاء.

يجب الاحتفاظ بهذه التعويذة من جهة القلب، كي نستطيع لمسها باليد اليمنى في حال التعرض للخطر والتبرك بها. وهذا، من دون شك، ما فعله عيسى وكوريه، لكنه لم يكن كافياً في تلك الليلة التي لوحقا فيها.

لا يفتأ المشرعون يفرضون إرادتهم علينا، ولكن لكل واحد منا الحق في تدمير إرادتهم تلك. يمكننا أن نخرق القانون بواسطة النار، يمكننا عبر النار إبعاد شبح الأرواح السيئة التي تلاحقنا، وحرق أدوات السحر الذي تمارسه الشرطة علينا. في استطاعتنا عبر عيوننا وأيدينا وأرجلنا، والفرح الذي يمدنا به الثعلب الشاحب، أن نحبط فعل القدر الذي يريد تكبيلنا. نستطيع أن نضرم النار في خطاباتكم الرسمية ومراسيمكم المفزعة وقرارات الزج في السجن، فالنار، بعكسكم، لا ترغب في السلطة، إذ أن اشتعالها لا يهدف إلا إلى تدمير السلطة نفسها.

Twitter: @ketab_n

لم يحظ عيسى وكوريه حتى بشرف اعتبار أن موتهما كانت نتيجة خطأ ما، فلقد رأت قيادة شرطة باريس أن موتهما كان انتحاراً، متجاوزة بذلك كل حدود الفجور المعروفة: «هذان الشخصان، اللذان ليس لديهما التصريح بالبقاء على الأراضي الفرنسية والصادر بحقهما أمر طرد، تهربا من الشرطة عدة مرات في ليلة 22 و23 حزيران، ثم في يوم 23 حزيران في الساعة الرابعة و37 دقيقة قاما بالانتحار عبر رمي نفسيهما عمداً في نهر السين من نقطة مرفأ «دو لارسنال» في الدائرة الثانية عشرة في باريس. انتشلا من الماء بعد ذلك وكانا في حالة حرجة جداً. لم نستطع إنعاش الأول في حين أن الآخر توفي من جراء أزمة قلبية أثناء نقله إلى المستشفى».

تقولون إن عيسى وكوريه انتحرا عبر رمي نفسيهما عمداً في الماء. أتعتبرون إذاً النتيجة التي أفضت إليها ملاحقتكم لهما انتحاراً؟ أتعتقدون بأنهما كانا ليرميا بنفسيهما في السين لو لم يكونا ملاحقَين، لو لم تطلقوا في إثرهما كلابكم الدموية آكلة الزنوج؟

في فرنسا العهد الملكي، وعلى ضفاف نهر «اللوار»، قام الملك لويس الحادي عشر وحاشيته بإطلاق رجل محكوم بالإعدام في الغابات المحيطة بقصر «امبرواز»، بعد أن ألبسوه جلد غزال كي تخلط كلاب الصيد بينه وبين الفرائس الحيوانية، فما كان من الكلاب إلا أن قطعت هذا الإنسان التعيس إرباً إرباً إشباعاً لرغبات الملك. كان ذلك منذ قرون خلت، شكل الأمر آنذاك سابقة في التاريخ. أما في الوقت الراهن، فإن صيد البشر قد أصبح رياضة يومية تمارس على الملأ. لا يختلف عيسى وكوريه عن ذلك الرجل الطريدة، وانتحارهما المزعوم لم يكن سوى حكم بالإعدام.

Twitter: @ketab_n

تجمعنا على ضفتي القناة من نقطة المرفأ إياه وحتى نقطة التقاء القناة بنهر السين، وقمنا كما يتطلب الطقس الجنائزي بإنشاد كلام يجمعنا بالأموات:

يوروغو لافاتاغو بوي

السلام لك أيها الثعلب الشاحب

اوال اراني ديو ويو بوي

مرتدي القناع قد مات

بيجيه جينا بورو كو لاراني بوي

جميعنا نبكي رحيله

بورو وادايا ديو ساغيا بوي

الدمع يغرغر في أعيننا

لوغو سيريجه كورو بور كامينو بوي

ونحن في الطريق إلى عرين الأجداد

لوركي وانا بوي

حل الليل

تقدم أحدنا نحو المكان الذي رمى منه التوأمان نفسيهما من على المنحدر وأطلق صرخات رحنا نكررها كجوقة وراءه:

فينيل الاراني بوي

يا للتعاسة يا مرتدي الأقنعة يا للتعاسة

بدأنا بعد ذلك بالتأوه، والتضرع إلى كل روح ترمز إليها الأقنعة:

ويجي ايجيه ديلابا

Twitter: @ketab_n

يا للحسرة يا أخينا بالقناع

وويه وويه وييه او

ابكِ، ابكِ، ابكِ

وويه وويه وييه او

ابكِ، ابكِ، ابكِ

ياما غالا وويو

أيها المحطم، الميت، ابكِ

قمنا بتقديم العطايا على أرواح الموتى. وفي نفس الوقت كنا ننشد، قمنا بتحضير بيرة الشعير في جرة كبيرة سنتجرع منها جميعاً حتى تفرغ ثم نضع فيها رسالة الطرد إياها، تلك الوثيقة التي أرسلها النائب العام للجمهورية إلى عيسى وكوريه، والتي أحرقاها درءاً للقدر المدون عليها. حين ذهب أبوهما للتعرف على الجثتين، سلمته الشرطة كيساً من البلاستيك يحتوي على قصاصات ورقية. سنقوم بحرق هذه القصاصات وسيقوم كل واحد منا بالانحناء نحو الجرة والإتيان بحركة تحاكي التهام الرماد الذي في داخلها.

***

عشية وفاتهما، قام عيسى وكوريه بالتدخل معنا في شارع «البيرينيه» لمساعدة ثلاث عائلات من المهاجرين غير الشرعيين الذين عرفنا بأن النائب العام قد أصدر قراراً بطردهم من الأراضي الفرنسية. هذه العائلات المؤلفة من عشرة أشخاص، منهم أربعة أطفال، كانت قد

Twitter: @ketab_n

لجأت منذ عدة أسابيع إلى مبنى السكك الحديدية القديم، وهي مساكن غير شرعية في الدائرة العشرين، إنها فعلاً مساكن بائسة. مجموعة مؤلفة من عشرين متظاهراً عرفت من الجمعيات المختصة بما يجري، فقامت هذه المجموعة بتشكيل سد بشري يمنع الشرطة من التدخل. كانت عملية الاعتقال هذه، أو كما تسمونها في لغتكم الخاصة «طرداً لأشخاص محددين»، مبرمجة لكي تتم في فترة ما بعد الظهيرة، بعد عودة الأولاد من المدرسة، كي يتسنى للشرطة القبض على أكبر عدد من هؤلاء اللاجئين المرعبين.

وصلت معلومات إلى الراوي بأن ثلاث عائلات من ساحل العاج من إثنية مالينكي، ستُرحل إلى مركز التجمع في منطقة مطار «أورلي» ليتم نقلها بالطائرة إلى أبيدجان حيث ستواجه مافيات أبيدجان التي كانت سابقاً من ضحاياها وهربت منها، الأمر الذي كان الراوي يرفضه رفضاً قاطعاً، فهو يرفض رفضاً قاطعاً هذا الشكل من الترحيل.

تمركزنا في المقاهي المحيطة بالمكان، «الشرفة»، و«البونوبو» و«الغامبيتا». البعض منا فضل الانتظار في مطعم «ماكدونالد» في حين أن آخرين أخذوا يتجولون في متجر «فرانبري» المجاور، حيث أخذوا يقلبون صفحات الكتب في زاوية المكتبة، بانتظار الرسالة التي ستعطي إشارة البدء بالتحرك.

عندما وصلت الرسالة على أجهزة بلاكبيري المشفرة التي نحملها، أخرجنا من الأكياس البلاستيكية الأقنعة (في مثل هذا النوع من التحرك نحضر معنا نسخاً عن الأقنعة الأصلية مصنوعة من خشب خفيف

Twitter: @ketab_n

لسهولة الحركة). انطلقنا باتجاه مبنى الخطوط الحديدية حيث كانت الشرطة، غير عابئة بالمقاومة التي كانوا يبدونها، قد بدأت بسحب العائلات إلى داخل الحافلة المعدة لهذا الغرض. قسوة رجال الشرطة وصراخ النساء وبكاء الأطفال واحتجاجات المتظاهرين الذين تدخلوا، كل هذه الأمور ساهمت في الإضفاء على كل حالة التوقيف شكل العمل العسكري. هي حرب بالفعل، حرب أهلية تجعل من فرنسا دولة منقسمة على ذاتها، كما في جميع الدول التي لا تعترف بحقوق الغرباء، غير المرغوب فيهم كما تدعونهم، وتجعل من حقهم في الحياة جريمة، واضعة إياهم والشرطة في حالة صدام دائم. وفي أغلب الأحيان يُخفى وجود مثل هذه الحرب لدوافع سياسية، ولذلك فهي تبقى سرية جزئياً. ولكن، وللدوافع نفسها، يُعلن عنها وتُحوَّل إلى عرض، تحاول وسائل الإعلام تسويقه تحت ستار الحرب على الإخلال بالأمان، عبر تصوير المهاجر غير الشرعي كجانح يخرق القوانين.

كنا نحو ثلاثين شخصاً نتقدم معاً في الوقت نفسه ومن جميع الجهات، كما كنا دائماً نفعل ذلك كي نستغل عنصر المفاجأة الذي توفره لنا الأقنعة التي تستنهض عالم الأدغال بكل مكوناته من رطوبة وظلام ولعنات. حشونا أكتافنا بالمطاط الرغوي (بالأشنيات) وهجمنا بقوة كما لو كنا لاعبي كرة الرغبي الأميركية.

السرعة التي كنا ندفع بها رجال الشرطة سمحت للبعض منا بتخليص المهاجرين غير الشرعيين من بين أيديهم، وللبعض الآخر بأن يختفي عن أعينهم، فقد كانوا يحتاجون إلى عدة ثوانٍ ليعودوا إلى وعيهم

Twitter: @ketab_n

بعد أن نضربهم، وهذه الثواني القليلة كانت كافية. ولكي نلهيهم كنا نقوم بتكسير زجاج سياراتهم. وإن دعت الحاجة إلى ذلك، يمكن لزجاجة مولتوف أن تضرم النار في العربة المخصصة لنقل المقبوض عليهم. لم يحتمل الأمر سوى دقيقة أو اثنتين ثم هربنا.

في تحركنا لا نترك شيئاً للصدفة، نتدرب على كل حركة نقوم بها كما لو كنا بصدد القيام بلوحة راقصة جماعية. فنحن نحصل مسبقاً على رمز فتح باب المبنى المحدد الذي سيختبئ فيه الهاربون، نحدد المسار المتعرج الذي ستتبعه، بغية تضليل الشرطة، بطريقة تجعل تقفي أثرنا أمراً صعباً. السيارة، التي ستنقل الأم وأولادها إلى تقاطع الطرق حيث سيكملون طريقهم بالمترو، تكون جاهزة وتنتظر منذ عدة ساعات. مهمة كل واحد فينا هي الاهتمام بأمر أحد المهاجرين غير الشرعيين دون سواهم، كل منا يؤدي دوره بمرافقة الشخص المكلف بتهريبه حتى يصل إلى بر الأمان.

يكون علينا تحاشي إعطاء رجال الشرطة الفرصة لإدراك ما يحصل لهم، فهم في مثل هذه الحالة سيصبحون أشد ضراوة، لأنهم يمتلكون الهراوات والتيزر، ذلك المسدس الكهربائي ذا الشحنات الكهربائية القادرة على شل الحركة، الأمر الذي يجعل من المقاومة أمراً مستحيلاً.

أما نحن فلا نمتلك أي نوع من الأسلحة، نكتفي فقط بدفع رجال الشرطة. أمس، في شارع «البيرينيه»، لم يكونوا سوى اثني عشر عنصراً، كان من السهل علينا شل هجومهم وتهريب سجنائهم.

يحدث أحياناً أن يُقبض علينا عندما يقوم أحدنا، بملء إرادته، بجذب قطيع الشرطة نحوه كي يسهل عملية فرار رفاقه. فيقوم بالركض

Twitter: @ketab_n

ببطء وبالتخفيف من سرعته ليتم توقيفه من قبل عناصر الشرطة الذين لا يرحمونه من شدة غضبهم. إلا أنه لا يخشى شيئاً، فبيننا، تخيلوا، أشخاص وضعهم قانوني!

بعد أن قام رجال الشرطة، رداً على فشل إحدى عملياتهم، بضرب المخرب الوحيد الذين استطاعوا القبض عليه، اكفهرت وجوههم حين أدركوا، وبينما هو في الحجز الاحترازي، أن هذا المخرب الذي ألقوا القبض عليه هو جامعي معروف عالمياً أو فنان شاهدوه مرة على التلفاز أو ممثل سينمائي مشهور.

كم يسعدنا أن نراكم تمتعضون حين تكتشفون أن من عاملهم أزلامكم بقسوة هم مواطنون شرفاء وشخصيات مشهورة! تشعرون بدوار للحظات حين تدركون أن هذا المشاغب الذي أفشل عمليتكم هو شخص فوق كل الشبهات، مندمج في المجتمع لدرجة أنكم جميعكم تعرفونه. هذا الدوار هو الأثر الذي نرغب في تركه في نفوسكم.

في ذلك اليوم، بعد أن هربنا مسرعين إلى المخابئ المحددة وتخلصنا من أثوابنا ورمينا أقنعتنا التي سيجمعها أصدقاء لنا جندوا أنفسهم لهذا الغرض، مشينا بهدوء كما لو كنا متنزهين يتفرجون على واجهات المحلات، إلا أن الشرطة تعرفت على عيسى وكوريه وقامت بملاحقتهما.

لا نخشى هنا الكشف عن الأساليب التي نتبعها، فنحن دائماً نقوم باعتماد عنصر المفاجأة في تحركنا. ما من قوة تستطيع قهر السرعة التي نعمل بها، فالسرعة هي ما يفرغ القوة من مفاعيلها. وكما قال أحد الفلاسفة ممن كان فكرهم يشبه الركض في طريق الهرب، فيلسوف شبيه

Twitter: @ketab_n

بالسحرة: «السر الأكبر هو ألا يكون لدينا شيء نخفيه، فلا يعود لأحد القدرة على تملكك».

معه حق. وحده الوضوح غير قابل للاحتجاز. إن كنا قد اعتلينا المنابر، فذلك كي تعلموا بأننا لا نخشى شيئاً في هذه الحرب، عندما نكشف عن أفكارنا نصبح أكثر رهبة.

في تلك الليلة، لم يلتحق بنا عيسى وكوريه في مقبرة «لوبير لاشيز». لم يثر الأمر قلقنا، فلقد كان الاثنان مزاجيين وعلى الأغلب لم يكونا يستسيغان ما كنا نفعله بعد مواجهاتنا مع الشرطة. أكثر ما كنا نحترم في شخصيهما هو خيالهما الجامح الذي يجعلهما متحفظين. ربما كانا يريان في الفرح العارم الذي كان يدفعنا إلى الرقص ليلاً بين قبور «لوبير لاشيز» والسير في الممر المزنر بشجر الزعرور والذي نسميه ممر «الشيفر» (الماعز)، حفلاً عبثياً يتجنبان الوجه الداعر فيه.

لا تحتل أطيافنا مقبرة «لوبير لاشيز» إلا ليلاً. كانت صديقة لنا قد أعطتنا المفاتيح كي ندخل الواحد تلو الآخر دون إحداث أية جلبة، جلبنا معنا الأشخاص الذين قمنا بتهريبهم لتكريسهم بحفل مُعدٌّ خصيصاً لهم. الشباب المالينكه[8] العشرة الذين حررناهم من الشرطة أصبحوا الآن بدورهم ثعالب شاحبة يعيشون في العالم المعاكس.

انتظرنا أمام حائط «الفيديريه» (جدار الاتحاديين) إلى أن ينضم إلينا الجميع، راسمين الدرب بين أشجار البلوط والطلح بأضواء مصابيح

8- أثنية عرقية في غرب إفريقيا.

Twitter: @ketab_n

اليد. كنا نرنم بصوت مكتوم اللحن الذي ينبئ باستعدادنا للاحتفال بالنصر الذي حققناه اليوم. توجهنا إلى المربع المخصص للأرمن والموجود في القسم الخامس والثمانين من المقبرة. كانت بعض التماثيل مهترئة، في حين أن البعض الآخر كان ما زال يحتفظ بأبهة قصر مصغر. هناك بين القبور مساحة نبتت فيها سرخسيات وتحيط بها أشجار أرز، كما تحتوي على بحرتين يلمع ماؤهما تحت ضوء القمر. وضعنا الأقنعة في إحدى البحرتين ومددنا على العشب بساطاً طويلاً مصنوعاً من شرائط ملونة، منسوجة على شكل رقع خضراء وزرقاء، مطرزة بخيوط حمر وبرتقالية وصفراء. افترشنا الأرض وتشاركنا مع ضيوفنا كرات اللحم والرز والفواكه وزجاجات الروم والبيرة التي وضعناها في البحيرة كي تبقى باردة.

الشابتان المالينكيتان كانتا تبكيان، في حين أن أطفالهما كانوا ينامون في عربات الأطفال تحت شجرة الأرز. قدمنا لهما قطعاً من فطائر الخبز، فارتسمت على وجهيهما ابتسامات خجولة.

حتى لو كنا مشردين بلا وطن، هناك قطعة أرض، بقعة أو هامش صغير، تتحول إلى وطن لنا. قد يبدو هذا الحيز الصلصالي من الأرض، المحصور بين شاهدتي قبر، صغيراً للغاية، ولكنه يكفينا. هو يكبر بالفرح الذي نبثه فيه ليتسع ويصبح مثل خريطة للعالم تفتح ثناياها.

أن تنقذ مهاجراً غير شرعي من الطرد هو أمر يعادل إدخاله في المملكة التي يرسمها كلام. هي مملكة لا تستطيع الرادارات رصدها، شفافة كالحلم، موجودة حتى إن اعتبرتموها ضرباً من الخيال المثير للسخرية.

Twitter: @ketab_n

نعيش فيها براحة، والغبطة التي نشعر بها ليلاً لدى استقبالنا لواصلين جدد تشبه غبطة القديسين.

من يمكنه طردنا منها؟ يجب أن يكون المرء قادراً على التخيل: فنحن لا نترك أي أثر وراءنا. مملكتنا تشبه تلك التي أسسها العبرانيون لدى خروجهم من مصر، مخيم. ربما أقل... خيمة واحدة.

بعد أن نريق الخمر، يكون على أصدقائنا الجدد اختيار أسماء جديدة. أضأنا بمصابيح اليد الأسماء المكتوبة على شواهد الأضرحة كي يستطيعوا اختيار الاسم الذي يفضلونه. البعض منا كان قد اختار اسماً وجده هنا، البعض الآخر اخترع اسماً جديداً لنفسه، ومنا أيضاً من فضل الاحتفاظ باسمه الحقيقي.

بالطبع، إن اختيار اسم مستعار يسمح لنا بأن نتحرر من سجلاتكم، فمن النادر أن يسمح لنا الاسم الذي ألصق بنا لدى مولدنا بأن نكون أحراراً. لكي تتأكدوا من هذه الحقيقة اذهبوا وراجعوا موظفي البلدية ورجال الشرطة التابعين لها لتعرفوا بما يفيد اسمكم. الأسماء التي اتخذناها تثير الأذن. هي أسماء تنقض الانتماء. الأسماء التي اتخذناها هي أسماء فخورة ونزيهة نسعد بتشريفها كتكريم لمن حملوها قبلنا، فالأسماء تكمل سيرة من حملها قبلنا، وبذلك تفلت هذه السير من الموت.

من بعض هذه الأسماء التي سمينا أنفسنا بها براكستون، سكين الغابة، جان البرق، الشيطان براندو، المباعد الرهيب، الانهيار 67، الثور ابولافيا، المغامرة فانون، المنبعث من الصيد، لانسلو البراكين، بلانكي، فرعون الخسوف، بروجرام، الديبوك الجائع، ذئب السهوب،

Twitter: @ketab_n

ملكة بولونيا، أعالي يانذا، جو سترومر، المنتفض فارلان، اوف سيلز، خذ حجارة، سبارتاك يانوده، جيرارد دو نيرفال، نحن الصاعقة، كانغا ينهض، جان ديشيل، فينوس الصعودات، المقاتل الفرنسي الدولي، قاذف الكواكب، الآخر المختلف كلياً، آنا مويس اللامعة، الصحراء المخيفة، فيراندي، واج دو بريزور، دي ايجوان، برا دونور (البعصة)، إسفلت الأدغال، دانييل دارك، اللؤلؤات الأربع، أمضي عبر النار، جان سبيبور، لويز ميشيل، روزا فيتروف، الحقيقة ذات العيون الحمراء.

العديد منا يحملون أسماء نشطاء الكومونة والذين سُفكت دماؤهم هنا في عام 1871. في ذلك الزمن، وجدت الجهات التي قمعت الثورة متعة في قتل الرجال والنساء على الأضرحة وتدنيس مكان مقدس بتلك الطريقة البشعة. يقال إن العالم مسكون. مسكون فقط؟ لا، هو منبعث وبانبعاثه يعيد معه أسماء. وإن انبعاث أسماء الموتى هو إعلان حرب. إن الدوغون مناصري الكومونة هم فوضويون متوجون.

قام عيسى وكوريه مثلنا باختيار أسماء مستعارة، لكننا نستعمل أسماءهم الحقيقية هنا لأن الموت يعيد الأسماء الحقيقة لمن أخفوا هويتهم في حياتهم.

نعلم أنهما قد لوحقا دون هوادة في تلك الليلة كما كان الزنوج يلاحقون في المستعمرات الكولونيالية. كان لهما خصوصية كل التوائم. وكما أن القمر يحمي الغزلان التي تولد توائم، بل يحمي كل ما هو مزدوج، كانت لهما رهبة لكن لم يكن هناك رقة كرقتهما.

كانا طويلي القامة، نحيلَين ودائمَي الابتسام، إلا أن حشمتهما كان

Twitter: @ketab_n

تجعل ابتساماتها حزينة. عيسى كان الأكثر كلاماً، أما كوريه فقد كان خجولاً ومتحفظاً بشدة. كانا يحبان فتاتين مثلهما من إثنية الكاييس تدرسان علم النفس الإثني وتعطيان بشكل تطوعي دروساً في مركز إيواء «بارا».

يتحول عيسى وكوريه لشخصين آخرين عندما يرقصان معنا. فعند وضع الأقنعة كانا يتحرران من تحفظهما ويحلقان كمالك الحزين. هما اللذان خطَّا الكتابة باللون الأحمر على الحائط مقابل كنيسة «نوتردام دولاكروا» في حي «بيلفيل»:

الله أسمر البشرة.

علمنا لاحقاً أنهما فقدا هواتفهما الجوالة أثناء ملاحقة الشرطة لهما، لذلك لم نستطع الاتصال بهما. استغرق الأمر بهما ساعات كي يصلا إلى ممر «بويسون سان لويس» في الدائرة العاشرة حيث كان قد اعتاد أصدقاء لنا من الحزب اليهودي الاشتراكي تقديم الملجأ لنا أحياناً. استراح عيسى وكوريه هناك لعدة ساعات ظانين بأنهما ضللا ملاحقيهما. عندما اتصلا بنا، نصحناهما بأن يبقيا مختبئين وبأن يتجنبا الالتحاق بنا. إلا أنهما حاولا الخروج في الساعة الثانية صباحاً، فلاحقتهم سيارة الشرطة ولقيا حتفهما.

انظروا إلى أيدينا وتمعنوا بأصابعنا، إن الكدمات التي تلاحظونها لها طابع طقسي، ولكن معانيها تغيرت منذ أيام أجدادنا. لم تعد أجسادنا مكرسة للأرواح التي تحمي قرية ما، بل جعلناها غير مرئية لمن ينسق أنظمتكم. وبهذا سيتحول وجودنا إلى حالة من عدم الاستقرار: نحن هنا ولسنا هنا في آنٍ معاً. إذا كانت الأسماء التي اعتمدناها غريبة، منها

Twitter: @ketab_n

ما يدل على شخص غائب والآخر على شيء يثير رغباتنا، فلدينا أيضاً أياد خارجة عن السيطرة. واحدنا موجود وغير موجود في آنٍ معاً، نستطيع الاختفاء بسرعة البرق، بسرعة طيران الحمام، حياتنا تشبه حالة الكسوف. نحن شعب يعيش دون أن يترك أي أثر، شعب تقوم هويته على مسح كل ما يؤسس لها.

كما الكثير منا، أصابع عيسى وكوريه كانت محروقة. أكثر من مليون من المهاجرين غير الشرعيين وطالبي اللجوء مسجلين في سجل «الاوروداك» وهو سجل أوروبي مخصص للتعرف على بصمات الأصابع. عندما يلقى القبض على أحدهم، يستخدم السجل بغية التعرف عليه. لقد أصبح تحديد الهويات اليوم يتم عن طريق المقياس الحيوي، أجسادنا أصبحت تفضح أمرنا وأيدينا تخوننا. عندما يتم تسجيل البصمات في بلد ما، لا يمكن طلب اللجوء في بلد آخر، فيصبح المرء رهين المكان الذي هو فيه. كان عيسى وكوريا يرغبان في المجيء إلى فرنسا إلا أن القارب حط بهما في جنوب صقلية، على جزيرة مليئة بالأسلاك الشائكة. قامت الشرطة بأخذ بصماتهما فأصبحا حبيسي المكان الذي وصلا إليه.

هذا المكان كان عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض تملؤها كتل من الحديد الصدئ، تنتشر في مياهها الراكدة أكياس البلاستيك المتعفنة، وتحلق طيور النورس المتصارعة في سماء مكب النفايات المجاور. نتكلم هنا عن «لامبيدوزا»، لكن هذا الأمر قابل لأن يحدث أيضاً في «كاليه» أو في أي مدينة عبور أخرى. يجتمع الرجال والنساء حول موقد النار التي يحرصون على أن تبقى متقدة لتحضير الشاي أو للغسيل أو لطهو

Twitter: @ketab_n

اللوبياء المعلبة. تستخدم هذه النار أيضاً لتسخين قضبان الحديد. تقوم إحدى الشابات من أريتيريا بأخذ قضيب الحديد المجمر وتقوم بوضعه على أطراف أصابعها، دون أن تعبس أو تصرخ. تقوم بمسح أطراف أصابعها بقضيب الحديد بسرعة كي لا يلتصق الجلد بالقضيب، فترتسم على أصابعها خطوط بيضاء اللون وينبعث من جلدها المحروق دخان أسود ذو رائحة كريهة.

تعيد الشابة الأريتيرية قضيب الحديد إلى النار دون أن تتلفظ بأية كلمة. يتقدم عيسى وكوريه ويلتقطان قضيب الحديد بدورهما ويحرقان أصابعهما. يجب تكرار هذه العملية لثلاثة أيام متتالية كي تأتي بالنتيجة المرجوة.

البعض يفضل استخدام براغ أو مسامير شديدة السخونة. كما يمكن، على ما يبدو، استخدام حمض البطاريات المستعملة.

الإنسان الذي لم يشم يوماً رائحة جسده وهو يشوى كقطعة لحم، لا يستطيع أن يعي معنى التضحية وسيبقى جاهلاً بعمق الألم الذي تختزنه ذواتنا.

كان المالينكيه قد اختاروا أسماءهم الجديدة عندما عادوا إلى ضفة بركة الماء. أطلق أحدنا صرخة: «ملتهب! ملتهب! ملتهب!» فبدأنا الغناء الذي يحتفل بالأسماء. لم نكن قد أحضرنا معنا لا طبلاً ولا كورا لنتجنب إصدار أصوات عالية، لكن مثل هذا الحفل لا يحتاج إلى موسيقا، يمكننا الرقص على وقع الكلام. في البدء يكون الإيقاع متحفظاً، نبدأ بتحريك الأوراك والأيدي والأرجل بخجل.

Twitter: @ketab_n

صرخة الثعلب التي يمتلكها كل واحد منا تطلق في حناجرنا بلورات صغيرة تختلط بلعابنا وتستحضر الكلام.

تتمازج ثم تتطابق في ذواتنا مياه البحيرة التي نغمس فيها أقنعتنا واللعاب الذي يشكل الأحرف الصوتية. نبدأ بالغناء الذي يبقبق كالبيرة وينتشر في الجسد المشع فرحاً. حينها نخلع ملابسنا ونكمل رقصتنا في مياه البحيرة.

الغناء الذي ننشده ألفناه بما يتناسب مع حالنا. هو نصٌّ - منحدر، لا نمل تكرار مقاطعه المتكاملة التي تحررنا من تأثيركم وتعيد إلينا حريتنا. نحن لا نحترم أي شيء يمكن أن يشكل عائقاً أمام شعرية الكلام، ونسخر من أولئك الذين يظنون الشعر ترفاً. الانفجار الوحيد الذي يستأهل أن ننتظره بصبر والقادر على تغيير نظام العالم لا يمكن أن يحدث إلا بالشعر، ذلك التفصيل الذي يؤثر فجأة في نفوس الآلاف من الناس، وينير الدرب الواصل بين عالم الأحياء والأموات. الشعر هو من يشعل فتيل التغيير.

الفاصل ما بين البحرتين فارغ. الأقنعة في بحرة وعرينا في الأخرى. نقوم بالاغتسال في الكلام.

تتشابك أجسادنا، وتتحد أفواهنا. الأرداف والأكتاف والنقر والإبط تنزلق وتلعق. في الماء، لا فرق بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء أو الرجل الأسود والمرأة البيضاء، فعندما يغتسل الجسد بالماء لا يعود له لون، ينساب الماء عليه ويداعب ويمص ويعجن ويعض ويقذف. العري يفتح العيون ويبلل النهود والأرداف والثقوب والأعضاء التناسلية. لا

Twitter: @ketab_n

نعود نعرف إلى من تعود هذه الأرجل المتباعدة أو هذه الأفخاذ أو هذا الفرج الذي تلجه الأصابع أو اللسان أو القضيب، لا نعود نعلم إن كنا نداعب أرداف رجل أو امرأة، أو إن كان اللسان الذي يلعق المؤخرة، أو الفم الذي يداعب القضيب هو لشابة أو لأحد رفاقنا. نغتبط بهذا العناق الذي لا حدود ولا جنس له والذي يحقق رغباتنا في السعادة. هذا الاغتسال أثار سعادتنا لدرجة أننا انفجرنا ضحكاً ونحن نجامع بعضنا البعض.

***

ما الذي حصل في ساحة «الباستيل»؟ من الذي أشعل الشرارة الأولى؟ ما من أحد يستطيع القول كيف بدأ التحرك. في الحقيقة بدأت انتفاضتنا قبل المواجهات الأولى. فكما تعلمون، النار مستعرة في رؤوسنا منذ فترة، والحقد الذي أشعل الحريق في تلك الليلة في شوارع باريس وأضاءها بأضواء حمراء وزرقاء قديم قدم ذاكرتنا.

بعد أن قمنا بتأبين عيسى وكوريه على ضفة نهر «السين». بعد أن ودعناهما، عدنا إلى الشوارع التي اكتظت بالآلاف منا، كان من المستحيل التحرك بسهولة من كثرة الحشود التي تحلقت حولنا.

احتشدت جماهير غفيرة وازدادت أعدادها كل دقيقة حول المرسى وفي الشارعين العريضين المحاذيين للقناة. حازت دعوتنا لإحياء ذكرى عيسى وكوريه للمرة الأخيرة على اهتمام أصدقائنا الذين قاموا بإخبار الجمعيات وجميع الأشخاص المتضامنين مع المهاجرين غير الشرعيين.

Twitter: @ketab_n

من المؤكد أن الحضور كان يتجاوز في انتمائه حلقة المقربين والمتعاطفين، فموت عيسى وكوريه أثار موجة تعاطف تجاوزتنا. ما الذي كان يحفز هؤلاء الناس؟ التضامن؟ الغضب؟ الشعور بأن الأمور قد تجاوزت الحد المقبول وأن الوقت قد حان للمبادرة بالرد؟

انتشر خبر موت عيسى وكوريه على شبكات التواصل الاجتماعي، كفيسبوك وتويتر والمدونات التي تناولت الفضيحة في غضون ساعات. في ذلك اليوم أثارت الحادثة تعليقات غاضبة، لدرجة أن المكان الذي اغتيلا فيه أصبح نقطة تجمعنا. أخطاء الشرطة ليست بالشيء النادر، لكن لم يثر واحد منها، منذ أحداث 2005، التي انتفضت فيها الضواحي لمدة ثلاثة أسابيع، مثل هذه الحماسة.

في البداية ربما لم يكن أحد يرغب في التظاهر من أجل إثبات وجوده، ولكن من الواضح أن جو الجنازة كان مشحوناً بجرأة كتمها الحضور احتراماً لحزننا. الكل كان ينتظر من دون شك الإشارة التي كنا سنعطيها لبدء التحرك.

أن تكون هنا، أن تكون حقاً هنا في الشارع، وحيداً أو محاطاً بالأصدقاء، معزولاً أو ضمن الحشد، أن تكون هنا دون أن تأتي بأية حركة أو تتلفظ بأي حرف، أمر كافٍ أحياناً لقلب نظام حكم قائم.

الهدوء الذي يسود الشوارع المكتظة يصيب بالدوار، لا يمكن وصف الحشود التي انضمت إلينا بعفوية، دون صراخ أو لافتات أو شعارات، الأقنعة فقط. نعم لم نلحظ ذلك فوراً لأننا معتادون على رؤية بعضنا البعض مقنعين، إنما الآن كل واحد فينا يرتدي قناعاً.

Twitter: @ketab_n

البعض كان يرتدي أقنعة كرنفالات ليلكية أو سوداء مزينة ببريق ملون فضي أو ذهبي. البعض الآخر كان يرتدي أقنعة أطفال تحاكي الوجوه الضاحكة والمتعددة الألوان لنجوم الرسوم المتحركة، آخرون أيضاً كانوا يرتدون أقنعة داكنة أو العكس، ملونة بلون صارخ كالتي يرتديها القتلة المتسلسلون في أفلام الرعب، أو دمى الأخبار التي تسخر من رجال السياسة وترسم على وجوهها ابتسامات تعبر عن مدى حمقها ولؤمها. كانت هناك أقنعة صنعت يدوياً خصوصاً من أجل هذه المناسبة على شكل وجوه خيالية داكنة وذات قرون، هدفها التحريض الأسود المشبع بمتخيل شيطاني. وأخيراً كان هنالك أيضاً أقنعة، ظهرت هنا وهناك، وازدادت أعدادها مع مرور الساعات، كما لو أن لها القدرة على التكاثر ومضاعفة قدرتها على التأثير، الأقنعة التي شهرتها حركة انونيموس والتي تحاكي الابتسامة الساخرة «لغاي فوكس» بطل فلم «في فور فينديتا». هذه الأقنعة تظهر في كل مرة يكون فيها حراك ثوري أو مقاوم، وهي كافية لأن تبث في العالم شبح التهديد.

سرنا في الطريق صعوداً ببطء. كان الناس يفسحون لنا المجال والكل يلوح لنا بيده. لم نكن نتحدث فيما بيننا ولم نصافح أحداً. كم من الوقت استمرت التحيات بين أقنعة إفريقيا وبين من كانوا يرتدون أقنعة من نوع آخر؟ تقرر كل شيء في تلك اللحظة، لأنه حتى لو رغبنا في العودة إلى منازلنا - هل كانت هذه الفكرة تراودنا؟- لم يكن من الممكن لنا أن نوقف الموكب ولا أن نعود إلى منازلنا. استمر حفل التأبين وأخذ أبعاداً جديدة، وكأنه حتمية لا يمكن السيطرة عليها.

Twitter: @ketab_n

من الملفت كيف أصبح ارتداء الأقنعة في غضون بضع سنوات دلالة عالمية على الاحتجاج والاختلاف مع القيم المجتمعية السائدة وتجسيداً لنقدها. النجاح الذي حققناه نحن الذين يسموننا «أقنعة» يثبت صحة وجهة نظرنا، فالقناع يدحض قيم هذا العالم الذي يروج إلى أن يتماهى كل إنسان مع شكله وأن يبرز هذه الهوية الذليلة.

كنا سعداء بأن نتواجد مع أقنعة أخرى وأن نتحرك في عالم لا يوجد فيه أي شكل من أشكال الضغوط. هل كنا نخشى من أن نذوب في الجموع؟ لا، على العكس تماماً، والدليل على ذلك هو أن كل هؤلاء المجهولين أتوا ليقابلوا الثعالب الشاحبة، والثعالب الشاحبة هم أيضاً من مجهولي الهوية.

امتزجنا هكذا بنوع من الفوضى الآمنة دون أن نعمل على تشكيل كتلة متجانسة. مهمة الجماعة، إن وجدت، هي أن تخدع الانغلاق، وهذا ما حصل، فغياب الهوية ابتلع الفضاء.

هذا لأننا لم نكن نشعر بأننا نسير في اتجاه محدد، كنا ننساق باتجاه بعضنا البعض. لا أحد يقرر توجهنا، ولكن الكل يتبعون الحركة العامة. ونحن الذين لا يحق لنا أن نتواجد هنا، كنا موجودين «هنا» أكثر من أي شخص آخر، رؤوسنا مرفوعة، في وسط باريس، وكان وجود هذا «الـ هنا» الغامض الذي يشع من أقنعتنا، قد بدأ يتمدد في كل شارع من شوارع المدينة، كما لو أنه كان لنا أن نكشف للمدينة عن الطابع الحتمي لوجودنا. في ذلك المساء، ما من شيء أوضح من هذا الفيض من الأقنعة التي كانت تستولي على الشوارع لتصبح هي بذاتها الشارع.

Twitter: @ketab_n

إن المسألة الوحيدة التي تجعل المجتمع يرتجف خوفاً كانت دائماً مسألة الجماعات الأخرى، لأن المجتمع لا يقبل وجود ما هو مغاير له، وهو يخاف من أن تأخذ الجماعة مكانه. ولكن وعلى مدى الحقبات الزمنية، فشلت كل أنواع الجماعات الخاصة، وهي الآن كلها منتهية الصلاحية. ولم يبقَ سوى العزلة الموجودة دون أي وهم حولها. وربما صارت في ظروفنا الحالية الإمكانية الوحيدة لمواجهة المجتمع.

لا شيء أكثر عبثية من الجماعات السياسية المغلقة على نفسها، والتي يتغذى أفرادِها على قناعاتهم لدرجة أنهم يكتفون بذلك. إن فكرة أن يكون الحق معنا بأن نكون ضد المجتمع لا تكفي لأن نعتبر المجتمع على خطأ، لأن المجتمع لا يعطي أية أهمية لما يتمكن من التعرف على ماهيته.

هل تشكل الثعالب الشاحبة جماعات محددة؟ نحن لا نطلب الذين يتعاملون معنا بأي شيء. كل واحد منا وحيد مع قناعه، وما يتم من خلالنا وباسمنا يتم عبر هذه العزلة التي تنفي الحدود. لا أحد يمتلك تغييب الحد، ولا حتى الثعالب الشاحبة. لكنها هي التي تحدد ما نفهمه بكلمة جماعة. ولا أرى أي بأس من عدم فهمكم لما نسميه جماعة غياب الحدود - التي نقصد بها - عزلة كل شخص، وما هو منيع فيها.

وبينما كان المساء يحل على مدينة باريس، كان طوفان الأقنعة يتوسع. أقنعة تأتي من كل مكان. كانت الأزقة الصغيرة في منطقة «الماريه» ممتلئة، وكانت هناك أقنعة جديدة تلقي بنفسها في شارع «سان انطوان» الهائل، كأنها تسعى إلى تجاوز عزلة كل منا، فتتحول إلى بحر من الرؤوس الغريبة.

ولكي نكسر الجمود، كانت الجماعة تطالب بمطالب مشتركة، وعادة

Twitter: @ketab_n

يقوم هذا المطلب المشترك بخنق الرغبات الفردية. في ذلك المساء حصل العكس تماماً، لم يكن في التعطش الذي يحركنا شيء جمعي، ولا مشترك، إن الأقنعة تحمينا من التماثل.

إن «نحن» المتكلمة في لغتنا هي أيضاً قناع، قناع لا يُلزم ولا يدمج أحداً. لم يضطر أحد مرة إلى الانضمام إلى الثعالب الشاحبة، ولا إلى أن يلتزم بقواعد. كل فرد حر في أن يكون معنا أو أن لا يكون. أن يحب أو أن لا يحب. أن يوافق أو أن يصمت. أن يجد مبررات للعيش أو أن يعيش دون هدف. إن الاحتفال الذي يضم حركاتنا، هذا الطقس الذي نسميه الثعالب الشاحبة، لا حدود له. إنه مطابق للحياة بذاتها.

لم تكن عزلتنا بهذا الجمال مثل الليلة. من خلال التعددية، لأنها تنفتح على كل أنواع العزلة: ومنها الفرصة في لقاء هذه الأنواع، واللعبة التي تجمع بينها للحظة ما، والغرابة التي تميزها وتجعل من التوافق بينها شيئاً ممكناً. وهذا ما تعلنه أغنية المنحدرات الصخرية لمنطقة «بيانغارا»: «إن صوت كل الكلمات وضعت في كلام الكل».

لو وجدت جماعة فإن هذه الليلة هي العلامة على وجودها: لأنها تحقق وجودها من خلال هذا الكلام الذي نحافظ عليه منذ الأزل. وباسم هذا الكلام - وهذا الصوت الذي يُسمع كل هذا الكلام - نحن هنا هذه الليلة في قلب اللهيب. ولو كان هذا الصوت وضع في كلام الجميع، فإنكم أنتم أيضاً تسمعونه. لكنكم ترفضون سماعه، حتى أنكم نظمتم حياتكم لكي لا تسمعوا مثل هذا الصوت، لكن الصوت موجود ويتمدد.

وصلت رسالة على الهواتف الجوالة تقول «أقنعة!» وكنا نسمع

Twitter: @ketab_n

في الحشد هذه الكلمة في كل مكان، كانت الكلمة تردد على الهواتف كصرخة فرح:

«الأقنعة».

«أخرجوا الأقنعة».

«تعالوا مع الأقنعة».

وبعدها كنا نسمع أسماء أمكنة، أسماء الأمكنة التي ستشكل مسيرتنا: «أوتيل دو فيل»، برج «سان جاك»، شارع «الريفولي»، «باليه رويال»، حدائق «التويلري»، «المادلين»، «الكونكورد»، أسماء معالم من باريس مترفة لم تكن باريسنا، ولكنها كانت توقظ فينا ذكرى أماكن الثورة الفرنسية.

عند سماعنا لهذه الأسماء، التي انتشرت كأسماء معارك وفتوحات، ابتسمنا: منذ ساعات، قدم من الضواحي الشمالية إلى منطقة «الهال»، من «لإيليه لو بيل»، ومن «غوسان فيل»، ومن «سارسيل»، ومن «غارج لي غونيز»، ومن «مانت لا جولي»، ومن «فال دارجانتوي»، ومن «لي مورو والفوس» ومن «سان دوني» ومن من «بير فيت ستنانس» آلاف من الشباب حملهم القطار السريع وكانوا يضعون أقنعة، أو قبعات تغطي الوجه، أو قماشة مربوطة حول الرأس كما يفعل الطوارق.

الضجيج الذي رافق وصولهم تحول إلى صمت عندما التحقوا بنا، هذا الصمت الغريب الذي كما وصفه الصحفيون - وكنا نتابع أخبارهم العاجلة على هواتفنا المحمولة - جعل من «ظهورنا» شيئاً مثيراً، وهذا ما لجم الشرطة عن التدخل حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

كانت السيارات المارة تطلق الزمامير، في البداية كنا نفسح لها المجال لتعبر الجمع، ثم سرعان ما تزايد عددنا لدرجة أن الشارع صار لنا. لم يعد أمامها أي مجال للتقدم. وبعيداً إلى الأمام، كان شارع «ريفولي» يبدو هو الآخر مكتظاً، كما لو أن موكبنا كان يكبر من جميع الأطراف في الوقت نفسه، وكأنه لم يعد له رأس وإنما عدد كبير من الأجساد التي تلتقي ببعضها لتصبح جسماً واحداً هائلاً. أصدقاء لنا أخبرونا على الهاتف أنهم يسيرون حول ساحة «المدلين»، وهناك أيضاً كانت الشوارع تكتظ بالناس، وكذلك فإن ساحة «الكونكورد» بدأت تمتلئ بالأقنعة.

وفجأة، على مستوى «الاوتيل دو فيل» (مبنى بلدية باريس) رأينا قوى الأمن. كانوا هناك منذ فترة طويلة من دون شك، كانوا ينتظروننا. كانت عرباتهم مصفوفة كأنها حواجز تحمي مباني البلدية وتمنع الوصول إلى نهر السين. بمعنى ما، فإن الحاجز، الذي هو رمز لكل الثورات، تحول في الوقت الحاضر إلى سلاح بيد قوات حفظ النظام. حتى الآن لم تمنع هذه القوات تقدمنا. الطريق كان لنا، كانوا يكتفون بالتعبير عن وجودهم عبر استعراض للقوة يسعى إلى إحباط تقدمنا.

انضم إلى قوى السي ار اس[9] سرية متحركة من الدرك، والكل كان يراقبنا، كانوا منتظمين في صفوف، يعتمرون خوذاتهم، ويقفون خلف دروعهم الزجاجية، حاملين هراواتهم. بعضهم كان يتبختر حاملاً مضخات الماء، وكرات الفلاش، وقاذفات القنابل المسيلة للدموع،

9- CRS قوات مكافحة الشغب الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

وتعرفنا بسرعة على مسدس التيزر الكهربائي الذي يستعملونه في حالات التوقيف.

لا شك في أنه كان قد تسلل بيننا عناصر من البي أ س، وهي فرقة مكافحة الجريمة التي تضم أعنف وأهم وحدات الشرطة، وهي التي على مدى السنوات تم اللجوء إليها في كل القطاعات، والتي تشارك اليوم في ملاحقة المهاجرين غير الشرعيين، إنها تلاحقنا ليلاً نهاراً، بإصرار، كأننا مجرمون. من المؤكد أنهم اندسوا في الجمع: كان يكفيهم أن يضعوا قناعاً ليذوبوا في المجموعة. ولكن المعلومات التي يمكن لهم أن يأخذوها عنا لم تكن ذات أهمية البتة. إذا لم هناك شيء يمكن أن يخرق ثبات كتلة لم تنظم تظاهرتها، ولا هدف لها أيضاً سوى أن تكشف عن وجودها.

كنا نعرف أنه في وقت من الأوقات لا بد من أن تتدخل قوات حفظ النظام. لا يمكن السماح باجتياح مركز باريس دون أن تتعرض الحكومة للخطر. بمعنى ما، كان ظهورنا المفاجئ شيئاً غير منتظر، حتى بالنسبة إلينا. ما كان يحدث فاق توقعاتنا، لم نحصل على إذن بالتظاهر، ولا كانت لدينا خطة هجومية، لكننا فتحنا باريس، وكانت المعجزة أن نحول بهذا الشكل الإقصاء الذي طالنا إلى انتصار مفاجئ. إنها فرصة تحضر لوقوع حدث ما، دون أن نكون قد سعينا إليه.

هؤلاء الذين أمضينا وقتنا نهرب منهم كانوا الآن هنا مقابلنا، مصطفين أمام عرباتهم. كنا نحدق فيهم، وربما كانوا هم أيضاً ينظرون إلينا أخيراً بشكل حقيقي. ربما كانوا يكتشفون للمرة الأولى أن لنا وجوداً، وأن هذا الوجود عصي عليهم.

Twitter: @ketab_n

كان عناصر قوات حفظ النظام والدرك يحدقون في أقنعتنا: إن أقنعة الدوغون تخلق دهشة حين رؤيتها، قطع خشبية طولانية تبدو وكأنها طواطم مليئة بالصلبان، عيون فارغة النظرات تبدو وكأنها محفورة في ظلمة الزمن، وتلك الأفواه التي تذكر بهاوية الابتلاع، كل تلك الوجوه الشبحية التي تنقض من خلالها أرواح الموتى عليكم، تخلق بالضرورة شعوراً بالانزعاج.

إن اللقاء بين الثعالب الشاحبة التي ترتدي زيتها وقوات الشرطة المجهزة بالعتاد بدا وكأنه استعادة من الزمن الغابر في القرن الواحد والعشرين، وفي قلب مدينة باريس. وكأن التاريخ ما فتئ يستعيد الصراعات التي تحركه، وكأنه من خلال مواجهتنا عاد التضاد الذي كان التاريخ يحاول إخفاءه ليظهر إلى العلن.

كانت قوات الشرطة تستعرض أسلحتها، مثل المحاربين الذين يحاولون من خلال هذا الاستعراض إرهاب خصومهم، أما نحن فلم نكن نملك سوى أقنعتنا، لم يكن لدينا شيء.

ليست شرطتكم على وجه التحديد هي التي تجعلنا نعيش تحت هوس الملاحقة، حتى وإن كان لنا جولات معها. إن ما يرسم معالم عالمكم هي قبضة لا يستطيع أحد التهرب منها، وحتى قوات الأمن لا تسيطر عليها. لقد تعلمنا أن نستكشف، في الإشارات الأكثر إبهاماً للقهر، ذلك العمق المظلم الذي يرجعها إلى السحر الأسود. بمعنى ما المراقبة هي نوع من السحر. وما من حل لدينا إلا محاولة تجنب هذا السحر بطريقتنا.

Twitter: @ketab_n

لقد بنيتم عالماً تكبلكم فيه السيطرة. أليست حياة كل واحد منكم خاضعة للحكم المجنون لسوق المال؟ أليست حياة كل منكم ضحية خلله الفاجع؟ ألستم أنتم من يضيع هباء عندما تختفي مليارات المليارات من اليورو في بورصة أسواقكم؟

لو كنتم أغنياء أو مُستغَلين، لو كنتم من أصحاب الأعمال المزدهرة أو على العكس من الخاسرين، فأنتم عندما تقبلون بأن تكونوا في آن واحد محركين وزبائن لهذه الآلية، فإنكم تكونون قد سمحتم لها بأن تبتلعكم. ستصبحون عاطلين عن العمل و تقفون كالأضاحي على أبواب مكاتب التشغيل. هذه هي الصورة النهائية لنظامكم الجميل، وهي التي تتوج نجاحه.

في هذا العالم الذي تدافعون عنه بأي ثمن، يُضحى بالبشر في كل لحظة. وهذه التضحية تلفكم. تظنون أنكم أُنقذتم عندما يبدو لكم أنكم صمدتم أكثر منا، ولكن الفرحة التي تشعرون بها من خلال استبعادنا لا تحميكم من العين الشريرة، أنتم أيضاً وقعتم في عين السحر.

ليس هناك أي مأوى، ولا ملاذ، بعيداً عن تلك القبضة. وليس هناك جبهة في هذه الحرب: مجرد خط ذروة، لا رسم له على أية خريطة. عند هذا الخط، الحاد كشفرة قاطعة، كلنا معرضون للخطر: أصحاب الربح (المفيدون) وغير المفيدين نهائياً، أصحاب القيمة والذين لا قيمة لهم أبداً. انظروا جيداً: أنتم هنا، مثلنا.

ترتب هذا العالم بحيث لا يحدث شيء في السياسة، وفي هذا تكونون قد وصلتم إلى هدفكم، لكنكم وفي الوقت نفسه وقعتم على أمر إبعادكم.

Twitter: @ketab_n

لأنه عندما لا يحدث شيء في السياسة، قد يحدث شيء خارج السياسة، وهذا الشيء يصبح سياسة هو الآخر. في لحظة بارقة، تعود السياسة إلى الحياة، آخذة معنى جديداً يذوب هو الآخر في اللحظة. إن الأقنعة التي تتحداكم هي تلك اللحظة البارقة. إنها تضيء بشكل أفضل ولو قليلاً العتمة التي نحن فيها، ويضعنا القدر في مواجهة بعضنا البعض.

ولهذا بالتحديد لا تتذرعوا بالأزمة. في كل مرة تسير الأمور بشكل غير مرضٍ بالنسبة إليكم يقوم أحدكم باستخدام هذه الكلمة، والتي تفعل فعل حجة الغياب. ولكن عالمكم لم يكن يوماً منتظماً. ذلك لأنه يدور ويعيد الدوران إلى ما لا نهاية، وهذا هو سبب خرابه. إن عالمكم هو بحد ذاته أزمة، وقد ابتلعه خرابه.

لا شيء حي يتم تناقله داخله، اللهم سوى أوامر تظنون أنكم تصدرونها بينما أنتم في الحقيقة تمتثلون لها. إن الابتلاع لا يتغذى إلا على ذاته، وهو يقضي على من لا يتمكن من كسر طوقه.

اندلع حريق حول برج «سان جاك»، وانتشر فوراً في الشوارع المحيطة به، التهبت الحاويات، واحترقت السيارات الواحدة تلو الأخرى. هذا الحريق الهائل لم يتوقف عن الانتشار طوال الطريق الذي كنا نسلكه، وما زال لهيبه يضيء الليل.

كل هذه السيارات المشتعلة كانت تضيء طريقنا كأنها مشاعل. كان الوضع كما لو أن تدمير هذه السيارات يدخل ضمن طقس يشرعن وجودنا. كان الحريق يحدد فضاءنا، ويحدد طابعه المقدس. وكأن حاوياتكم، وسياراتكم هي محارق أضاحٍ. إن نارهم تشق لنا طريقنا.

Twitter: @ketab_n

تنبهنا إلى أن باريس هي لنا، وأن هذه المدينة تحترق بشعلة تحملها منذ الأزل، شعلة ثابرتم أنتم على إخفائها. شعلة الخارجين عن تبجيلكم.

على طول شارع «ريفولي»، وشارع «كاستيغليون» وحتى ساحة الفاندوم، كانت واجهات المحلات مكسرة، وقامت الجموع بنهب الدكاكين الفخمة. في بعض الحالات، كانت عملية السلب هي الرد الطبيعي على هذا الفائض من البضائع الذي يسمى الترف. عندما نشعل النار في شلالات فخمة وفساتين ذات قيمة، عندما نهشم بأقدامنا ساعات يد قيمتها خمسون ألف يورو، فإننا لا نقوم سوى بفضح المصاريف الهائلة التي تجنن عالمكم.

قمتم طبعاً بالتنديد بالفضيحة، وعلى كل الإذاعات، وعلى التلفزيون، وأدنتم الوحشية التي تنم عنها فعلتنا. ولكن أحداً منكم لم يوحِ بأنه ربما كان زعرانكم هم الذين كسروا تلك المحلات الفخمة، ولم يوضح أحدكم أنه ربما كنتم أنتم الذين كلفتموهم بإقحام العنف في المسيرات الأكثر سلمية، ذلك لكي تبرروا القمع الذي تمارسونه. ولم يسأل أحد منكم أيضاً ما هو الأكثر فداحة: تكسير محلات المجوهرات أو الدفع ببريئين إلى الموت؟

على كل حال، إن الإيحاء بأن رغبتنا تُحَدُّ في التملك - كما لو أنه كانت لدينا أدنى رغبة في الحصول على بضائعكم الفخمة - كانت مناورة ناجحة، لأنها سمحت لكم بأن تبدؤوا بالهجوم علينا.

كانت صافرات الإنذار تصدح من كل جانب، ولدقائق قليلة كان صوت الطائرة العمودية فوق رؤوسنا رهيباً. في ساحة «الفاندوم»

Twitter: @ketab_n

هجمت مجموعات من قوات حفظ النظام المسلحة بالهراوات وقامت بضرب الجموع التي بدأت تتفرق فجأة.

خلال دقائق، كانوا يرمون القنابل الدخانية، ويطلقون الغاز المسيل للدموع، ومن الطائرة يرشون الجموع المحتشدة بكميات كبيرة من المياه. تراجعت الأقنعة، وبسرعة ملفتة، عندما صارت الساحة فارغة تماماً، قامت السلسلة التي شكلتها قوات حفظ النظام بتطويقها، وثبتت في تلك الوضعية، فلم تعد تتحرك، كما لو أنهم كانوا يسعون قبل كل شيء إلى حماية منطقة المصالح التجارية.

كان الصحفيون قد أطلقوا شعار «هبة الأقنعة». وفي مواقع التواصل التي كنا نتابعها من خلال هواتفنا الجوالة كنا نلحظ أنهم يتساءلون عن الطبيعة الغامضة لهذا العصيان الذي لا يحمل شعاراً. كانوا يبحثون في الخطر الذي يمثله، وكذلك في موضوع الأقنعة الإفريقية المندسة في هذا الجمع غير الواضح المعالم. بعض الصحفيين تعرفوا على المصدر: الدوغون، وتساءلوا هل لهذا علاقة بالأحداث التي تمر بها المنطقة السواحلية. أغلب مواقع الإنترنت تستخدم في الوقت الحاضر تعبير «مجهول الهوية الإفريقي» وكلهم يحاولون فهم مصدر هذه الفتنة الهائلة والمدهشة.

ولكن الأحداث لا مصدر لها غير العالم الذي نعيش فيه، وفكرة أنه صار من المستحيل العيش في هكذا عالم. وحتى لو أن أعمال الشغب تحدث مؤخراً في بلدان أخرى عديدة، حتى لو أنها تحدث، في كل بلدان العالم، فهي بذلك تنفي فكرة البلد لتفتح على فكرة عالم يعيش نهايته،

Twitter: @ketab_n

ولأن هذه الأعمال كان لا بد لها من أن تحدث، ولأنه بمعنى ما صار الشغب في القرن الواحد والعشرين هو قدر العالم.

ماذا كنا نعيش؟

ما هو الموضوع المطروح من خلال «هبة الأقنعة»؟ هل كانت ثورة؟

ولا واحدة من الهبات التي عاشتها أوروبا مؤخراً أو البلدان العربية، ولا حدث من تلك الأحداث لم يصل إلى أن يكون ثورة، ربما لأن الثورة هي حدث غير مكتمل، وأنها تحدث خارج كل ما يمكن أن يجعلها مدركة.

إذاً ما هي التسمية التي يمكننا أن نطلقها على ما يحدث؟

ليس هناك أجمل من ذلك. ثم إننا نحب كلمة ثورة لأنها تخيفكم. وإن كانت تخيف بهذا القدر أناساً مثلكم سيكون لها مستقبل.

إن ثورات سرية تتسرب في ذهنية العصر ولا يشعر بها إلا شخص مثلي، لكنها تسبق الثورات. وهي غالباً ما تستعصي على خبراء في التعليق عليها؛ وإن كان من الصعب الكلام عن حدث يشبه حدثنا الحالي، فذلك لأن هذا الحدث يتخفى بشكل يصبح فيه غامضاً. ولكن سيكون من الصعب أيضاً عليكم أن تضعوا حداً لمثل هذا الحدث.

في هذه الليلة لن تنطفئ النار. لأن عددنا كبير جداً. هل ستقوم قوى حفظ نظامكم بذبحنا؟ فات الأوان. كل العالم يرى ما يحدث لنا، كل الناس تصور بواسطة هواتفها الجوالة، وصور ما يحدث في ساحة «الكونكورد» مركز ورمز باريس تصل إلى العالم برمته. هل ستقومون بخنق جماعة صامتة بالغاز؟ هل ستسحلون أقنعة؟

Twitter: @ketab_n

إذاً، ها نحن هنا وأقنعتنا تحدق بكم. ربما تظنون أننا ننتظر منكم نوعاً من «التسوية» لوضعنا؟ تتخيلون أننا نطلب منكم أوراقاً نظامية؟ أنتم تحلمون. انتظار اعترافكم وماذا بعد؟ نحن لا ننتظر شيئاً، وخاصة منكم. لا نريد عالمكم.

في تلك الليلة، وبينما كانت المواجهات مستمرة من جهة منطقة «المادلين» وساحة «الفوندوم» حيث حاولت قوى الشرطة من خلال عرض مفبرك إقناع الرأي العام بأننا ثرنا لنغزوا بضائعكم، وأن رد الفعل الدموي كان ضرورة لقمع اللصوصية التي تضر بالجمهورية، أخرج أحدهم أوراقه الثبوتية ورماها في النار.

ثم تكرر الموقف على طول شارع «الريفولي»، وخلال دقائق قام كل من يحمل أوراقاً ثبوتية بإلغائها برميها في النار.

ونزلنا حتى ساحة «الكونكورد». كنا نلمح في آخر شارع «الشانزليزيه» قوس النصر، وكأنه كان يدعونا بدعاماته المضاءة إلى اجتياز البوابة. مقابلنا في الجهة الأخرى من نهر «السين» كان قصر الجمعية العامة (البرلمان) محمياً من قبل عربات قوى حفظ النظام التي كانت تغلق جسر «الكونكورد».

إن النار المتصاعدة من البؤر كانت تعطي المسلة هناك هيئة إله وحشي. كانت أوراقها الذهبية تلمع في الليل، وعمودها كان يبدو وكأنه عضو ذكري منتصب في السماء ليخرق النظام السائد.

تمركزنا بين النافورتين، وبدتا بالنسبة إلينا مألوفتين، كما لو أننا كنا

Twitter: @ketab_n

نستمر بممارسة الألعاب التي كنا نمارسها في مقبرة «البير لاشيز»، إنما بشكل مغاير.

في هذه الساحة حيث قامت الثورة بالتضحية بالمبدأ الألوهي من خلال الملك، ها هي الأقنعة تبدو وكأنها تضع نهاية فكرة الهوية من خلال إضرام النار في الأوراق الثبوتية. في هذه الليلة ها هي الساحة تستعيد اسمها القديم، من خلال لهب النار التي تشتعل في ساحة «الكونكورد»، لتعود من جديد ساحة الثورة.

هل حدث لكم، منذ فترة طويلة، أن سمعتم صوت ذلك المعتوه الذي يحمل قنديلاً مضاءً في منتصف الظهيرة وهو يصرخ بسر موت الله في الساحات العامة؟ تذكروا. كان يدعي أنكم أنتم من قتله، وأنكم من خلال هذه الجريمة فصلتم هذه الأرض عن شمسها، وأنكم ألقيتم بها في عدم لا نهاية له.

وها إن سراً جديداً يتحقق هذه الليلة، ولا يعلن عنه صراخ شخص معتوه، وإنما صمت الذي يحافظ على سريته. وليس من المؤكد بالنسبة إليكم، أنتم المشغولين بتحييد أثرنا، أن تسمعوا هذا الصمت. لكن في الماضي عندما أعلن لكم من خلال الصراخ عن موت الله، لم تكونوا تسمعون شيئاً أيضاً. إذاً ربما سيصل إليكم هذا الصمت بشكل أو بآخر، وربما أن البعض منكم سيشعرون بأن غرابة هذا الصمت تعلن عن سر بنفس أهمية سر موت الله، سر، بمعنى ما، يحقق السر السابق، لأنه يُعنى تحديداً بما استبدلتم به الله.

نعم، هذا ممكن في النهاية. البعض منكم سيسترق السمع، سيكتشف

Twitter: @ketab_n

في الحدث الصامت لهذه الليلة خبراً لن يتم نشره ومن الأفضل إخفاؤه، سيحاولون إقناع أنفسهم بأنهم لم يفهموه وأنهم أخطأوا، وأن هذه الأقنعة لا يمكن لها أن تعلن عن سر مخيف كهذا. موت المجتمع.

عندما يفقد الجميع أوراقهم الثبوتية هل من الممكن التعرف على الذين لا يحملون أوراقاً ثبوتية؟ إن أقنعتنا ترتكز أساساً على غياب عام للأوراق الثبوتية. إن غير الشرعيين، في هذه الليلة، في ساحة «الكونكورد»، يختلطون مع الذين لم يعد لهم أوراق ثبوتية. هكذا لم يعد هناك من يسمى «بدون» بما أن الأوراق لم تعد موجودة. ها هو عالم يوتوبي متحرر من مسألة الهوية ينبثق من بين اللهب.

يدور الدولاب الكبير لحديقة «التويلري» ليضيء الآن قدرنا. ومن خلال كل هذه الأقنعة التي تجمعت في ساحة «الكونكورد» ينقلب عالمكم رأساً على عقب. الذين نفيتموهم إلى قعر المجتمع يحتلون المركز الآن، أما أنتم فقد نفيتم إلى الأطراف. لا بد من أنكم ستقولون إننا محاصرون. لكن ومن خلال الدائرة التي ترسمونها حولنا تثبتون حقيقة تحكمون فيها على أنفسكم.

همس يتعالى من تحت الأقنعة، إنه صوت الثعلب الشاحب. فقد بدأ يغني. صوته يفتح أفقاً من الأمل أمام كل واحد منا، الصوت ينقل ناره إلى كل الأقنعة، ويحيي السماء والنجوم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يانيك هاينيل

كاتب فرنسي مواليد العام 1967. عمل مدرّساً للغة الفرنسية ويشارك في تحرير مجلة «خط الخطر» الفرنسية.

أصدر عدة روايات أثارت جدلاً. رُشح وحصل على عدة جوائز أدبية فرنسية.

Twitter: @ketab_n

المترجمان:

د.ماري الياس:

أستاذة جامعية. درّست سابقاً في جامعة دمشق والمعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق – سوريا. تدرّس حالياً في الجامعة اليسوعية في بيروت – لبنان.

صدر لها عدة مؤلفات وترجمات أهمها المعجم النقدي المسرحي مع د.حنان قصاب حسن. وجزأين من أنتولوجيا المسرح الفرنسي الحديث.

د.معن السهوي:

أستاذ مساعد في قسم الدراسات الفرنسية في جامعة براون في الولايات المتحدة الأميركية، مدرّس سابق في قسم اللغة الفرنسية في جامعة دمشق، حاصل على شهادة الدكتوراة في الرواية الفرنسية الحديثة من جامعة باريس العاشرة.

صدر له كتاب وعدد من المقالات المنشورة حول الرواية الفرنسية المعاصرة.

Twitter: @ketab_n

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

رجل اختار أن يعيش في سيارته. ومن خلال كتابات ورسومات غريبة ظهرت على الجدران في مدينة باريس، استشعر بوادر ثورة قادمة.

الثعلب الشاحب إله فوضوي من إفريقيا. تحمل اسمه مجموعة من اللاجئين غير الشرعيين، وتتحدى النظام في فرنسا.

من هو هذا المشرد الذي ينتظر انقلابا؟

من هم الثعالب الشاحبة؟

إن موضوع الكتاب عن اللقاء بينهما، وهو يجري اليوم.

رواية أخاذة

"اللومند"

ISBN 978-9933-540-08-1

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع